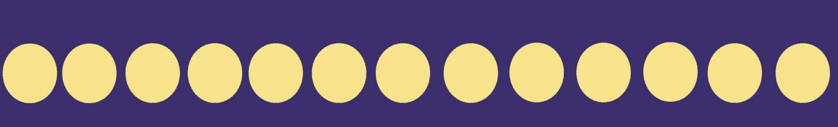
فاسيلي بودوستنيك
أوفشي ياخوت

ألفباء
المادية الجدلية



ترجمة
جورج طرابيشي



دار الطليعة - بيروت

ألِف بَاء المادّيّة الجَدَليّة

ص.ب ١١١٨١٣
بيروت ــ لبنان
تلفون ٣٠٩٤٧٠
٢٥٧١٧٨

الطبعة الاولى
كانون الثاني (يناير) ١٩٧٩

فاسيلي بودوستنيك ، أوفشي ياخوت

ألِف بَاء المادّيَة الجدَليّة

ترجمة

جورج طرابيشي

دار الطّليعة للطّباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة لكتاب

Précis De
Matérialisme Dialectique

Par

Vassili Podossetnik
Ovchy Yakhot

Editions Du Progrès
Moscou

تقديم

الغرض من هذا الوجيز أن يلم قراؤه بالمفاهيم والمشكلات الاساسية للمادية الجدلية التي تؤلف جزءا مكونا من الفلسفة الماركسية .

يأخذ مؤلفا هذا الوجيز بعين الاعتبار ايضا واقع ان القراء سيدرسون للمرة الاولى الفلسفة الماركسية . لهذا حرصا على شرح مفاهيم المادية الجدلية ومقولاتها في شكل شعبي بقدر الامكان ، موردين من الامثلة أقربها وأسهلها الى التناول ، قابسين اياها من ميدان العلم والحياة الاجتماعية .

يأمل المؤلفان ان يكون هذا الوجيز نافعا لكل من يرغب في الالمام بأصول الفلسفة الماركسية .

المؤلفان

الفصل الأول

المادية الجدلية فلسفة الماركسية

١ ـ ما الفلسفة ؟

تعلمنا التجربة اليومية انه حتى نفهم على الوجه الصحيح ما يدور حولنا فلا بد ان تؤلف تصوراتنا عن الحياة والعالم والمكان الذي نشغله فيهما نسقا علميا متلاحما . والانسان بحاجة الى نسق كهذا لا ليمكنه فهم علل الاحداث فحسب ، بل ليمكنه ايضا تعيين مكانه في العالم وممارسة تأثير فعال على هذه الاحداث ، والمشاركة بفعالية في الكفاح التحرري الذي تدور رحاه في عصرنا هذا . وبعبارة اخرى ، لن يسعنا ان نفهم الاحداث التي تجري حولنا الا اذا استرشدنا بهدي **تصور صحيح**

للعالم يضم بين طياته كل ما نعرفه عن الحياة ، والعالم في مجمله ، والظاهرات والاحداث التي تقع فيه . والفلسفة تحديدا هي التي تعطينا هذا الضرب من المعرفة . وبناء عليه ، يحتاج بناة الحياة الجديدة أشد الحاجة ، بجانب العلوم الاخرى ، الى الفلسفة . فعن طريقها ينمون فضولهم الفكري ، ويطورون موقفا متبصرا ازاء كل ما يجري في العالم ، ويوسعون أفقهم . وكلمة «الفلسفة» بالذات ، التي نحتها في العصور القديمة الاغريق ، تعني حب الحكمة ، حب العلم .

بيد انه يخلق بنا ألا يغيب عن أنظارنا ان الفلسفات لا تعطي جميعا تصورا علميا عن العالم . فبعض الفلاسفة ، وعلى الاخص في البلدان الامبريالية ، يشوهون ويحرفون الاحداث التي تقع في العالم . وعليه ، لا تصلح كل فلسفة بلا تمييز لان تصير دليلا ومرشدا ، لانه ما كل تصور عن العالم صحيح بالحتم والضرورة. ان فلسفة مبنية على العلم هي وحدها التي تستطيع ان تعطي تصورا علميا عن العالم . وتبين لنا التجربة ان الناس، بحصولهم على معارف فلسفية مبنية على العلم ، ينتهون الى قناعات ثابتة ، حازمة ، تقودهم الى الذود عن مصالح شعبهم وحرية بلادهم واستقلالها . والقناعة التي تتولد لدى الناس بصحة افكارهم تدفع بهم الى اجتراح مآثر عظيمة باسم السلام والسعادة .

كيف نفسر ، والحالة هذه ، اهمية الفلسفة ؟

اذا كانت الفيزياء وعلم الفلك وعلم الحياة وسائر العلوم تدرس القوانين التي تحكم قسما فقط من ظاهرات الطبيعة ، فان الفلسفة بالمقابل تدرس أعم القوانين ، اي تلك التي تحكم ارتقاء العالم في مجمله . **الفلسفة هي علم أعم قوانين ارتقاء الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني** . لكن نجانب الصواب لو خلصنا من ذلك الى استنتاج يزعم ان الفلسفة يسعها الاستغناء عن العلوم الاخرى ، وأن هذه العلوم تستطيع بدورها الاستغناء عن

الفلسفة . فهذه الاخيرة ليس لها ان تكون تصـــورا متقدما ، تقدميا ، عن العالم ، ما لم ترتكز في استنتاجاتها الى منجزات العلوم الاخرى . ومثل هذه الفلسفة هي في عصرنـــا الحاضر فلسفة الماركسية ـ اللينينية التي تستند الى آخر مكتشفـــات العلم ، وتسلح بدورها هذا الاخير برؤية عامة للعالم وبمنهـــج للمعرفة متقدمين ، فتساعده على الوصول الى معارف جديدة ، الانسانية هي بمسيس الحاجة اليها .

تسلح الفلسفة البشر اذن بنسق من الافكار عن العالم . تلك هي قوتها . لكن سبق لنا القول انه ليس لدى الناس جميعـــا تصور واحد عن العالم . فهو عند بعضهم علمي وتقدمي ، وعند بعضهم الآخر منافٍ للعلم ، بله رجعي .

مثال : ان اولئك الذين يكافحون في سبيل حرية الشعوب وسعادتها والذين يذيقون هذه الشعوب الاضطهاد يفهمون فهمـا متغايرا معنى الحياة والسعادة والحرية ، الخ . وأولئك الذين يكافحون الاستعمار والامبريالية لا يعطون لفظتي الحرية والسعادة المعنى نفسه الذي يعطيهما اياه الاستعماريون والامبرياليون .

ان هذا الاختلاف في وجهات النظر يرتهن ، في المقـــام الاول ، بالوضع الذي يشغله في الحياة وفي المجتمع هذا الفرد او ذاك . وكما يدلنا التاريخ ، لا يمكن ان توجد ، في مجتمـــع مؤلف من طبقات ومن فئات اجتماعية مختلفة متطاحنة ، فلسفة وحيدة ، تصور للعالم مشترك بين المضطهَديـن والمضطهِدين . وليس للفلسفة ان تكون محايدة في الوقت الذي تخوض فيـــه الشعوب كفاحها من اجل الاطاحة بالنير الاجتماعي والاستعماري.

الفلسفة ملتزمة اذن على الدوام . وبعبارة اخرى ، تذود عن مصالح طبقات محددة . لهذا كانت فلسفة كل حقبة تاريخيـــة حلبة لصراع دوما . وكان المتصارعان على هذه الحلبة وما يزالان **المادية والمثالية** .

ينبغي ان نلحظ بادىء ذي بدء ان مدلول هذيـن المفهومين

عرضة للتحريف في غالب الاحيان . فالطبقات الرجعية تسعى بجميع الوسائل الى الابقاء على التصور المبتذل للمادية والمثالية سائدا في صفوف الشعب . فالمادي بموجب هذا التصور المبتذل يهتم ، اول ما يهتم ، بمصالحه المادية . اما المثالي فيعمل في خدمة قضية ما ، فكرة ما ، مثل أعلى ما ، بصورة متجردة ومنزهة عن الغرض . وهذا التصور لا يمت بصلة الى الفارق القائم في الواقع بين المعسكرين الفلسفيين الرئيسيين . والحق ان الخط الفاصل بينهما يقع على مستوى مغاير تماما .

بين جميع المسائل التي تهتم بها الفلسفة بوصفها واحدا من اقدم العلوم ، ثمة مسألة جوهرية يحدد حلها الاتجاه الاجمالي للنظام الفلسفي .

فيمَ تكمن اذن المسألة الجوهرية لكل فلسفة ؟

نصطدم في العالم بكثرة من الاشياء والظاهرات . بعضها له وجوده المستقل عن وعي الانسان ، ومن ذلك الاحجار ، الاشجار، الرعد ، البرق ، الماء ، الحيوانات ، النباتات ، وغيرها وغيرها . ونحن نعرفها بفضل ما تمارسه من تأثير على اعضاء حواسنا : ففي وسعنا ان نراها ونجسها ، ان نقيسها ونزنها . لكن توجد أيضا ظاهرات من نوع آخر ، كالفكر والاحساسات والارادة والرغبة على سبيل المثال . ونحن لا نستطيع لا ان نراها ولا ان نسمعها ، لا ان نقيسها ولا ان نزنها . ان هذه الظاهرات لا توجد الا في وعي الانسان . اذن توجد في العالم فئتان من الظاهرات: ظاهرات لا تتعلق بوعينا ، بل توجد موضوعيا ، اي بذاتها ؛ انها الظاهرات المادية . والظاهرات الاخرى لا توجد الا في وعينا . وهي ظاهرات **مثالية ، روحية** . والسؤال الكبير هو الذي يتعلق بمعرفة ما علاقة التبعية التي ينبغي ان نقيمها بين هاتين الفئتين من الظاهرات ؟ وبعبارة اخرى ، ما الذي ينبغي ان نعتبره معطى اول : العالم المادي (الطبيعة) او الوعي ؟ وهذا واحد من وجوه

المسألة الجوهرية لكل فلسفة . وهوذا وجهها الآخر: هل يستطيع الانسان او لا يستطيع ان يعرف العالم ، ان يكوّن عنه **تصورا مطابقا** ؟ ينقسم الفلاسفة ، بحسب اجابتهم على هذا السؤال ، الى معسكرين كبيرين . فأولئك الذين يؤكدون ان العالم المادي ، الطبيعة ، هو المعطى الاول ، وان الوعي معطى ثانٍ ، مشتق من الطبيعة ، يؤلفون **معسكر المادية** الفلسفي . اما اولئك الذين يؤكدون ، على العكس ، ان الوعي معطى اول ، والذين يعتبرون الطبيعة معطى ثانيا ، مشتقا من الوعي، فيؤلفون **معسكر المثالية.** وها قد مضت ٢٥٠٠ سنة على تحارب هذين المعسكرين ، هذين الاتجاهين الاساسيين للفلسفة . فالماديون ، الذين يستندون الى منجزات العلم ، يثبتون ان الاشياء والظاهرات المادية التي تحيط بنا توجد بذاتها ، اي خارج وعينا . فالارض والانهار والاحجار والبروق والاشجار ، الخ ، ذات وجود مستقل عن الانسان ووعيه . بل اكثر من ذلك ، فقد برهن العلم على ان العالم كان موجودا قبل ان يظهر الانسان ، الكائن الواعي ، على سطح الارض . اما المثاليون فيؤكدون ، خلافا لمعطيات العلم ، ان العالم المحيط وجميع الاشياء والظاهرات المادية انما تتولد عن الوعي . انهم يقدرون ان الفكر والمفهوم والفكرة هي التي انجبت الاشياء والمواضيع .

يعرف تاريخ الفلسفة نوعين من المذاهب المثالية : المثالية **الموضوعية** والمثالية **الذاتية** . الموضوع ، بوجه عام ، هو ما يوجد خارج الانسان ، مستقلا عن وعيه . وينطلق بعض المثاليين من واقع ان الفكرة توجد وجودا موضوعيا ، وأنها في اصل خلق العالم . ويطلق عليهم اسم **المثاليين الموضوعيين** . فهم ، على سبيل المثال ، فيلسوف اليونان القديمة افلاطون ، وفيلسوف القرن التاسع عشر الالماني هيغل ، وكذلك ممثلو المذهب الفلسفي الرسمي للكنيسة الكاثوليكية ، التوماوية الجديدة .

الذاتي هو ما يخص ، ما يلازم فردا بعينه ، شخصا بعينه ،

اي الذات . بعض الفلاسفة ، وعلى سبيل المثال الانكليزي بيركلي (القرن الثامن عشر) ، يعتبرون ان الانسان وحده ووعيه همـا اللذان يتمتعان بوجود فعلي . يؤكدون ان الأشياء لا توجد الا اذا ادركها الانسان مباشرة بحواسه ، الا اذا رآها وسمعها ، الا اذا ادركها باللمس . والاشياء ، اذا لم يدركها الانسان حسيا ، لا وجود لها . في رأيه ان العالم لا يوجد الا في الوعي ، فـي احساسات الذات . «وجود الشيء مرهون بادراكه الحسي» ، «الاشياء تركيبات من الاحساسات» : هذا ما كان يؤكده بيركلي واتباعه . وهذا يعدل التوكيد بأن الذات ، اي الانسان ، تولّد العالم ، ولاكثر من مرة : حسب الانسان ان يغمض عينيه فيختفي العالم . ان هذا الضرب من المثالية قد أطلق عليه اسم المثالية الذاتية .

والمثالية ، سواء أكانت موضوعية ام ذاتية ، تدحضهـا التجربة ، تدحضها الحياة اليومية التي تبرهن على صحـة التصور المادي عن العالم .

ان الاشياء والظاهرات التي تحيط بنا لها وجودها الفعلي في نظر كل انسان سوي ، اي وجودها المستقل عنا وعن وعينا . والمادي يجري محاكماته العقلية وفق ما هو كائن : فالأناناس له وجوده الاول ، ونحن نراه ونشمه . والاناناس يثير بحكم خواصه الموضوعية ، التي لا تتعلق بالانسان ، احساسات معينة : مذاقا خفيف الحموضة ، حلواً ، لونا اخضر ، الخ . وهذا ما يسمى بالتصور المادي العفوي للعالم الذي يرشد الناس في حياتهـم العملية . ويسبغ الفلاسفة الماديون على هذا التصور طابعـا منظما ، متماسكا . والمادية الفلسفية ، بخلاف المادية العفوية ، واعية ، مبنية على أسس علمية .

من هنا ندرك اهمية المسألة الجوهرية في الفلسفة . فليس من قبيل المصادفة ان تمثل هذه المسألة ميدان القتال الـذي

يتواجه فيه الماديون والمثاليون منذ العهود الغابرة حتى ايامنا هذه . وهذا الصراع الايديولوجي يعكس صراع الطبقات ، صراع القوى التقدمية والقوى الرجعية في قلب المجتمع . وبوجه عام ، ذادت المادية على الدوام عن مصالح قوى التقدم ، بينما حامت المثالية على الدوام ، وبغير ما استثناء تقريبا ، عن مصالح القوى الرجعية .

ان دراسة العالم وفهمه يرتهنان ايضا **بالمنهج** الذي يستخدمه هذا الفيلسوف او ذاك كي يفهمه . والمنهج الفلسفي الذي يجري استخدامه لدراسة الوقائع الطبيعية والاجتماعية له اهميته الكبرى بالنسبة الى الفلسفة والعلم . ولفظة «منهج» تعني في اليونانية : طريقا ، اتجاها . واذا اخترنا الطريق السليم في دراستنا للطبيعة ، اي اذا استرشدنا بمنهج فلسفي صحيح ، امكننا ان نسبر بنجاح غور أسرار الطبيعة. اما اذا لم يكن الطريق او المنهج الذي وقع عليه الاختيار هو الطريق او المنهج الصحيح، فاننا نجازف على العكس بأن نتيه ونضل عن الهدف ، اي نجازف بألا نعلم اي شيء اكيد عن الطبيعة .

لكل علم مناهجه الخاصة . فالبيولوجيا ، على سبيل المثال ، تعتمد الملاحظة والتجريب . ومهمة الفلسفة ان تدل الى الطريق ، الى المنهج الواجب استخدامه لا لدراسة هذه الظاهرة او تلك ، وانما لدراسة ظاهرات الكون قاطبة . وعليه فان مهمة الفلسفة ان تقدم منهجا فلسفيا عاما للمعرفة ، تستطيع ان تستخدمه العلوم جميعا ، علاوة على المناهج الخاصة التي تملكها .

ما هي اذن مناهج المعرفة التي انشأتها الفلسفة عبر تاريخها كله ؟ ثمة منهجان فلسفيان ، طريقان لدراسة الظاهرات . واحدهما يقضي بالنظر الى الاشياء كافة والظاهرات جميعا من خلال تغيراتها المتصلة ، من خلال تطورها . وهذا المنهج يسمى **جدليا** . وقد كان للفظ «الجدل» في العهود الغابرة معنى مغاير

لمعناه اليوم . فقد كان فلاسفة اليونان القديمة يعنون بالجدل الحوار ، النقاش الذي تتضح من خلاله الحقيقة للعيان في معترك اختلاف الآراء . اما اليوم فالمقصود **بالجدل منهج فلسفي يدرس الواقع في صيرورته الدائمة ، في حركته** . كان هيراقليتس ، فيلسوف اليونان القديمة ، يقول : كل شيء يمضي ، كل شيء يتغير .

اما المنهج الفلسفي الآخر فيقضي بالنظر الى الاشياء كافة والظاهرات جميعا بصفتها ثابتة ، ساكنة ، جامدة . انه المنهج **الميتافيزيقي** . والجدل والميتافيزيقا ، كما هو ظاهر للعيان ، منهجان مختلفان ، بل متعارضان ، لمعرفة العالم . فأي هذين المنهجين الفلسفيين هو الاصح ، وأيهما الاكثر علمية ؟ انه بلا نزاع ذاك الذي يقضي بالنظر الى الاشياء كلها في تطورها ، اي المنهج الجدلي . انه مطابق للواقع بالذات ، ويؤكد صحته العلم والتجربة . فالحياة ليست ساكنة ، وانما هي تتغير وتتطور . فعلى سبيل المثال كان الانكليز والفرنسيون ما يزالون الى عهد قريب يتقاسمون افريقيا ؛ لكن العديد من الدول الافريقية فازت اليوم باستقلالها ، وحطمت أغلال الاستعمار ، وتكافح في سبيل مستقبل سعيد لشعوبها . وهذا تطور ، ارتقاء ، تقدم في حياة الشعوب . وظاهرات الطبيعة تتطور بدورها . الجدل اذن يدل الى الطريق الصحيح لدراسة ظاهرات الطبيعة والمجتمع كافة .

بيد انه ينبغي ان نلاحظ ان الجدل لا يكون علميا فعلا الا اذا اتحد عضويا بالمادية . وهذا الاتحاد بين الجدل والمادية يتحقق في الفلسفة الماركسية ، في المادية الجدلية .

٢ ـ نشوء المادية الجدلية

تمت صياغة فلسفة الماركسية ، المادية الجدلية ، على أيدي

المنظرَين الكبيرين للحركة العمالية كارل ماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣) وفريدريك انجلز (١٨٢٠ ــ ١٨٩٥) ، ثم اكملها قائد الشغيلة فلاديمير لينين (١٨٧٠ ــ ١٩٢٤) . ولا يعرف التاريخ شخصيات مارست من عظيم التأثير على تطور الثقافة ومصائر الانسانية قاطبة ما مارسه كارل ماركس وفريدريك انجلز وفلاديمير لينين، جبابرة الفكر الانساني والعمل الثوري . وقد تكهنوا ، وأنظارهم شاخصة الى المستقبل ، بما ستكونه مصائر الشعوب ، ودلوا هذه الاخيرة الى الطرق الواجب نهجها والوسائل الواجب استخدامها للفوز بحياة حرة وسعيدة على الارض .

طفق مذهب ماركس وانجلز الفلسفي يتكون في أواسط القرن الماضي ، تحت تأثير حركة العمال الناشئة في سبيل انعتاقهم الاقتصادي والسياسي .

في الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشر ، بدأت البروليتاريا تتدخل كقوة مستقلة . ففي انكلترا شن العمال نضالا جماهيريا في سبيل حقوقهم السياسية ، عرف باسم الحركة الميثاقية (١) . وفي فرنسا كان تمرد النساجين (٢) ، وفي المانيا كان تمرد الحاكة في سيليزيا . وقد كانت هذه المعارك الطبقية الاولى بين العمل والرأسمال اشارة الى بدايةنضال الطبقة العاملة في سبيل انعتاقها .

هكذا يغرس مذهب ماركس وانجلز جذوره في الكفاح الذي خاضه البروليتاريا للانعتاق من الاستغلال والاضطهاد . وقد غدا هذا المذهب التعبير الواعي عن المصالح الحيوية للطبقة

---

١ ــ او الحركة الشارتية . «م»

٢ ــ الاشارة الى ثورة عمال الانوال اليدوية لنسج الحرير في مدينة ليون في عامي ١٨٣١ و١٨٣٤ . «م»

العاملة ، وبرنامج نضالها في سبيل الاشتراكية . وقد هدى البروليتاريين في الاقطار كافة الى الطريق الوحيد الواجب سلكه للانعتاق من نير العبودية الرأسمالية .

لم ير مذهب ماركس وانجلز النور بمنأى عن حركة الثقافة العالمية ، بل كان الوريث الشرعي لخير ما أبدعته الانسانية الطليعية . كانت الفلسفة قبل ماركس وانجلز قد اعطت الناس تصورا ماديا عن الطبيعة ونظرية في التطور (الجدل) . وقد تجلى هذان الانجازان العظيمان للفكر الفلسفي على أسطع نحو في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر في الفلسفة الالمانية . وكان المتقدمون المباشرون على ماركس وانجلز في المضمار الفلسفي هيغل (١٧٧٠ - ١٨٣١) ، الفيلسوف المثالي الالماني ، وفيورباخ (١٨٠٤ - ١٨٧٢) ، الفيلسوف المادي الالماني .

كان مذهب هيغل الفلسفي يستمد قيمته من كونه يتضمن فكرة التطور والارتقاء : الجدل . وكانت فلسفة فيورباخ تتضمن أوضح عرض يومئذ للتصور المادي عن الطبيعة . وقد عبر لودفيغ فيورباخ بقوة جديدة عن ضرورة مكافحة المثالية والدين .

منذ نهاية القرن الثامن عشر ، وتحت تأثير حاجات الانتاج الرأسمالي ، تطورت العلوم بسرعة . فالفيزياء على سبيل المثال درست بنجاح الحرارة والمغناطيسية والكهرباء . وحددت الكيمياء خواص العديد من العناصر والتراكيب الكيمياوية . كذلك اصابت حظا كبيرا من التقدم الجيولوجيا ، العلم الذي يدرس اصل باطن الارض وبنيته .

وقد توجت هذه النجاحات بثلاثة اكتشافات كبرى .

اولا ، الخلية . فقد أوضح العلماء أن جميع اعضاء الحيوانات والنباتات تتألف من خلايا متنوعة . وقد اقام هذا الاكتشاف البرهان على وحدة بنية الطبيعة الحية .

ثانيا ، قانون بقاء الطاقة (١) وتحولها ، وهو من اهم قوانين الطبيعة . وبمقتضى هذا القانون لا يمكن للطاقة ، شأنها شأن ركيزتها ـ المادة ـ لا ان تخلق ولا ان تفنى . وما تفعله في شروط معينة هو انها تتحول ، تنقلب من شكل الى آخر . الطاقة الميكانيكية ، على سبيل المثال ، تنقلب الى طاقة حرارية في حال الصدام او الاحتكاك . وتتحول الطاقة الحرارية لبخار المرجل الى طاقة ميكانيكية في العنفة كي تتحول من ثم في المنوّبة الى طاقة كهربائية . وقد أظهر هذا الاكتشاف الصلة الوثقى بين مختلف أشكال الطاقة .

ثالثا ، ظهر مذهب عالم الطبيعيات الانكليزي تشارلز داروين (١٨٠٩ ـ ١٨٨٢) بصدد أصل الانواع . وقد سدد داروين ضربة قاصمة الى التصور الميتافيزيقي ، المنافي للجدل ، عن الطبيعة الحية . وقد اثبت ان جميع النباتات وجميع الحيوانات والانسان قد ظهروا عقب ارتقاء دام ملايين السنين .

تكمن اهمية هذه الاكتشافات الكبرى ، في المقام الاول ، في كونها قد نسفت المنهج الفكري الميتافيزيقي الضيق الذي كان يعتمده العلماء في ذلك العهد . وقد اتاحت هذه الاكتشافات امكانية رؤية الطبيعة من وجهة نظر جديدة . فعلى ضوئها ما عادت الطبيعة تبدو ساكنة جامدة . وصار بيّناً للعيان ان الطبيعة بكاملها ـ بدءا من أصغر الجزيئات الى اكبر الأجرام السماوية ، وبدءا من حبة الرمل الى الشمس والنجوم ، وبدءا من الخلية الحية البدائية الى الانسان ـ تتحرك وتتبدل دوما وأبدا .

أبان العلم التاريخي بدوره عهدئذ أن الحياة الاجتماعية ليست

---

١ ـ الطاقة ، خاصية اساسية من خواص المادة : قدرة العمل على الانتاج . وهي مقياس حركة المادة .

هي الاخرى ساكنة ، بل هي قيد التبدل والتحول . فالمجتمع مؤلف من طبقات متصارعة . وعلى هذا الاساس حدثت الثورات البورجوازية التي وضعت حدا ، في انكلترا وفرنسا ، للنظام الاقطاعي القديم . خلاصة القول ، ابانت مسيرة تقدم علم الطبيعة والمجتمع ان التصور الميتافيزيقي عن العالم قد دالت دولته ، وأن ثمة حاجة لاستبداله بتصور جديد ، جدلي .

لقد تمثل ماركس وانجلز كل ما أبدعه العلم قبلهما وكل ما هو قيِّم فيه . لكنهما لم يكتفيا بمجرد تمثل منجزات العقل الانساني ، بل أعادا التفكير بروح نقدية في جميع فتوحات الفكر الانساني الطليعي ، وفقا لمصالح ولاهداف البروليتاريا والشغيلة قاطبة . وأنجزا كثوريين كبيرين مأثرة علمية منقطعة النظير ، ثورة في العلم ، في الفلسفة ، في الاقتصاد السياسي ، في المذهب الاشتراكي ، وفي سائر ميادين المعرفة ؛ وأبدعا علما ثوريا جديدا : الماركسية .

لقد كانت واحدة من أبرز نتائج الثورة التي قام بها ماركس وانجلز انشاءهما لفلسفة الماركسية : المادية الجدلية . ولقد كانت رؤية جديدة ، وثورية ، للعالم .

قال ماركس : في السابق لم يفعل الفلاسفة شيئا ، بصورة او بأخرى ، سوى انهم فسروا العالم . والحال ان المطلوب تحويله . صحيح ان البورجوازية الامبريالية غير معنية بتغيير العالم . فهي قد تربعت على سدة السلطة ، وفي نيتها تأبيد النظام الرأسمالي . لكن البروليتاريا والشغيلة اجمعين معنيون ، على العكس من ذلك ، وبصورة حيوية ، بتبديل العالم القديم وببناء مجتمع اشتراكي بلا طبقات . وهدفهم لا يعاكس مسيرة المجتمع الماضية قدما الى الامام ، بل يتطابق تمام التطابق مع قوانين التاريخ . والبروليتاريا ، وهي اكثر طبقات المجتمع تقدما وثورية ودليل الشغيلة ومرشد المضطهَدين ، هي المؤهلة

لان تكون خالقة مجتمع اشتراكي جديد . لقد كانت الفلسفة القديمة لا تصلح لخدمة هذا الهدف . فقد كانت منفصلة عن حياة الشعب وعن مصالح الجماهير الكادحة . وللوصول الى الهدف الكبير الذي تكافح البروليتاريا في سبيله ، لم يكن هناك بد من فلسفة ثورية جديدة تساعد البروليتاريا لا على تفسير العالم تفسيرا صحيحا فحسب ، بل تكون ايضا بين يديها بمثابة سلاح روحي موثوق لتحويل العالم ثوريا . ولقد كانت فلسفة الماركسية ، المادية الجدلية ، هي بالضبط ذلك السلاح الروحي في أيدي الشغيلة .

لقد كان ماركس وانجلز يدركان تمام الادراك انه لا مجال ، اثناء عملية ابداع تصور ثوري جديد عن العالم ، لنبذ الفلسفة القديمة ولفظها جملة وتفصيلا . فهذا شيء غير معقول . لكن لم يكن هناك بد من اعادة النظر فيها باتجاه نقدي ، والحفاظ على منجزات الفكر الانساني الطليعي : التصور المادي عن الطبيعة ، ومذهب التطور والارتقاء (الجدل) . ولم يكن من سبيل الى ذلك الا بالتغلب على نواقص الفلسفة القديمة وحدودها التي أضحت عقبة امام تقدم الفكر الانساني .

فيمَ كانت تكمن اذن تلك النواقص وتلك المحدودية ؟

كانت المادية القديمة ميتافيزيقية . كانت ترى الى الطبيعة على انها ساكنة ، ثابتة . من ذلك ، على سبيل المثال ، انهم كانوا في القرنين السابع عشر والثامن عشر يعتبرون ان الشمس والكواكب وأفلاكها لا تتعرض لاي تغير . وكان التصور عينه عن الطبيعة الحية قد رسخ في الاذهان .

ما كان الماديون القدامى ، بما فيهم فيورباخ ، يقيمون وزنا للدور الهائل الذي يلعبه نشاط الناس العملي . ما كانوا يرون سوى فعل الطبيعة في الانسان ، من غير ان يلحظوا فعل الانسان في الطبيعة . علما بأن بني الانسان لا يكتفون بتأمل العالم الخارجي ، بل يؤثرون ويفعلون فيه ، ويغيرونه . بنو الانسان

يجوّدون الانتاج على سبيل المثال باستمرار ، ويصنعون ادوات عمل وآلات ومعدات جديدة . كذلك تراهم يغيرون النظام الاجتماعي ، فيستبدلون الانظمة البالية بأخرى جديدة .

كيف نفسر ذلك العيب الجوهري في المادية القديمة ؟ نفسره بكون هذه الاخيرة غير متماسكة وغير كاملة . فممثلوها ما كانوا ماديين الا في تأويل ظاهرات الطبيعة ، لكنهم لبثوا في مواقع المثالية فيما يتعلق بظاهرات الحياة الاجتماعية . حين كانوا يرون الى ظاهرات الطبيعة كانوا يقدرون بحق ان الطبيعة معطى اول ، وأن الوعي معطى ثان ، مشتق . لكن حين يكون المطلوب تفسير ظاهرات الحياة الاجتماعية ، كانوا يبتعدون عن أرضية المادية : كانوا لا يتبينون العلل المادية ، الطبيعية، لتطور المجتمع، فيحاكمون الامور محاكمة مثالية . كانوا يفترضون ، على سبيل المثال ، ان آراء الناس و«الشخصيات القوية» ورغائبهم ومشيئتهم هي محرك التقدم الاجتماعي، اي انهم ما كانوا يعترفون الا بالدوافع المثالية لتطور المجتمع ، وليس البتة بالدوافع الموضوعية ، المادية . ويقدم لنا فيورباخ على ذلك مثالا نموذجيا. فقد كان يعتبر الطبيعة معطى اول ، والوعي معطى ثانيا . وانطلاقا من هذه المبادىء كان ينتقد المثالية والدين . وبالمقابل ، حين كان يفسر ظاهرات الحياة الاجتماعية : الدين ، الاخلاق ، العلاقات بين الناس ، الخ ، كان ينطلق من مبادىء المثالية . فعلى سبيل المثال ، بدلاً من ان يأتي بتفسير صحيح لظاهرة اجتماعية محددة كالاخلاق استنادا الى الشروط الفعلية التي يعيش فيها الناس، كان ينطلق من وجهة النظر القائلة ان الناس يتمسكون بأفكار اخلاقية ابدية وثابتة ، مستقلة عن الشروط المادية لحياتهم . كان ذلك تصورا مثاليا عن الحياة الاجتماعية ، لانه كان يؤكد ان الافكار والمبادىء الاخلاقية مستقلة عن الوجود والموجودات .

بناء عليه ، كان نقد نواقص المادية القديمة وتجاوزها شرطين لازمين لانشاء المادية الجدلية . وفي الوقت الذي حافظ فيه

ماركس وانجلز على الاساس المادي للفلسفة القديمة ، اي على التصور المادي عن الطبيعة ، تجاوزاه الى ما هو أبعد منه . فقد أعتبرا ان مهمتهما هي اكمال بناء المادية ، وسحبها على الحياة الاجتماعية ، واعطاء الانسانية تصورا ماديا علميـــا للتاريخ . ولانجاز هذه المهمة كان لا بد من انشاء **جدل** ثوري ، اي **مذهب للتغير كامل بقدر الامكان ، ودمج المادية بالجدل في مذهب واحد متلاحم – المادية الجدلية – وتطبيقها على تاريخ المجتمع .**

ماذا كان اذن وضع الجدل في الفلسفة القديمة ؟

كان الجدل والمادية يسلكان ، بوجه عام ، دروبا متباينة . فقد لبثت المادية ميتافيزيقية ، منافية للجدل ، بينما راح الجدل يتطور في اطار مثالي ، وبخاصة في مذهب هيغل . ونتيجـــة لذلك ، كان الجدل ينطوي على نواقص خطيرة لا مناص مـــن التغلب عليها وتجاوزها .

لقد تمثل الجدل في وجهه الاكثر تطورا في مذهب هيغل الفلسفي . لكن عيب جدله كان يكمن في خضوعه التام للمثالية. وترتب على ذلك ان الجدل لم يكن مطبقا الا على تطور الفكرة ، على الوعي . ويذهب هيغل الى ان الفكرة والروح هما وحدهما اللتان تتطوران وتنتقلان من حالة الى اخرى ؛ اما فيما يتعلـــق بالطبيعة ، التي كان هيغل يعدها واحدة من مراحل تطور الفكرة، فما كانت تتطور في الزمن ، اي لم يكن لها تاريخ خاص بها . كان من الواجب اذن لا التغلب على العيب الجوهري في الجدل الهيغلي فحسب ، بل ايضا اكتشاف ما هو ثمين وتقدمي فيـــه والحفاظ عليه . وقد حطم فيورباخ نظام هيغل ، ونبذه جملـــة وتفصيلا .

لقد اقتضى الامر عبقرية كعبقريـــة ماركس لانقاذ النـــواة العقلانية في جدل هيغل . وكانت هذه النواة العقلانية تتمثل في التوكيد بأن كل ما في العالم يتبدل ويتطور ، وبأن أصل هـــذا التطور يكمن في التناقضات الباطنة . لكن لفصل هذا المذهب

التقدمي في التطور عن قشرته المثالية ، كان لا بد من اعادة النظر في جدل هيغل رأسا على عقب ، وتحويله الى جـــدل مادي ، واعطائه شكلا علميا حديثا . والحال ان ذلك ما كان ممكنـــا الا بالارتكاز الى منجزات الممارسة الثورية والعلم .

ان تطبيق ماركس وانجلز لمنهجهما الجدلي على دراســـة الطبيعة والحياة الاجتماعية قد اتاح لهما انشاء مذهب فلسفـي تتحد فيه **المادية والجدل** اتحادا وثيقا **لا يقبل فكاكا** . هكـــذا ابتدعت **المادية الجدلية** ، تصور العالم الجديـــد ، الثوري ، الصحيح وحده دون غيره ، المستجيب كل الاستجابة لمصالـــح وأهداف نضال الشغيلة في سبيل انعتاقهم . والمادية الجدلية في ايامنا هذه سلاح إيديولوجي موثوق ، يساعد بني البشر على بناء حياة جديدة . ماذا تمثل اذن المادية الجدلية ؟ ماذا تعلمنا؟ سنجد الجواب على هذا السؤال في العرض التالي .

الفصل الثاني

المادة واشكال حركتها

ما المادة ؟

ان مذهب المادة هو حجر الزاوية في المادية . الحياة ، التجربة اليومية تقنعاننا بأن للعالم وجوده الموضوعي ، المستقل عن الانسان ووعيه واحساساته ورغائبه . والعلم يؤكد الشيء ذاته . فقد اثبت ان **الارض** تكونت قبل حقبة طويلة من ظهور الانسان ، بل حتى قبل حقبة طويلة من ظهور اي عضوية حية ، وعليه فقد كان لها وجودها المستقل عنهما . وبحسب معطيات العلم ، وجدت الارض قبل ٥ مليارات من السنين . أما الانسان فلم يظهر عليها الا قبل زهاء مليون سنة . وموضوعية العالم ،

اي وجوده خارج الوعي ومستقلا عنه ، تستتبع انه مادي .

ان كمية لا محدودة من الاشياء والظاهـــرات تحيط بنا . الاحجار والاشجار ، حبات الرمـــل والشمس ، الحيوانات ، المحيطات والصحارى ، النجوم والكواكب ، الخ . ونحن نشير الى هذا كله بكلمة واحدة : المادة . وأسماء الجنس مثـــل «المادة» تسمى بالمفاهيم .

تشمل بعض المفاهيم قطاعا واسعا من الاشياء والظاهرات ، ويشمل بعضها الآخر قطاعا أصغر . وهكذا نجد ان مفهـــوم «الشيء» اوسع من مفهوم «الريشة» او «الطاولة» .

هل هناك مفاهيم واسعة الى اقصى حد ممكن ؟ أجل . اذا كان المفهوم يشمل الاشياء والظاهرات كافة ، بدءا من حبة الرمل الى الدماغ البشري ، فان هذا النوع من المفاهيم سيكون هـــو الاوسع والاشمل .

ذلك هو حال مفهوم «المادة» . ويترتب على ذلك ان «المادة» هي ايضا مفهوم ، مثلها مثل «الشيء» ، لكنها مفهوم واســـع للغاية ، أوسع المفاهيم طرا . وهو يتميز عن المفاهيم العاديـــة بكونه يعبر عن السمات الاكثر جوهرية والاكثر عمومية لا لفئـــة بعينها من الاشياء ، وانما للاشياء جميعا ، للظاهرات طرا فـــي العالم ، لكل ما يحيط بنا . وهذه المفاهيم الاوسع والاشمـــل تسمى ايضا بالمقولات الفلسفية .

ما هي اذن تلك الخواص العامة والجوهرية المحايثة للاشياء طرا ؟ ان الاشياء هي جميعها ، في المقام الاول ، مادية ، ذات وجود موضوعي ، اي خارجي عن وعي الانسان ومستقل عنه .

وللاشياء ايضا خاصية هامة . فحين نغتسل بالماء الساخن ، على سبيل المثال ، نشعـــر باحساس بالحرارة . وحين نراقب الاشجار في غابة ، نرى لون الاوراق الاخضر . ويترتب علـــى ذلك ان الاشياء ، التي لها وجودها المستقل عنا ، تمتلك خاصية

الفعل في اعضاء حواسنا وإثارة الاحساسات . نحن نطلق اذن اسم المادة على كل ما يحيط بنا ، على كل ما له وجود موضوعي، على العالم الخارجي الذي يؤثر في اعضاء حواسنا ويثير الاحساسات . حدد لينين في مؤلفه «المادية والتجريبية النقدية» مفهوم المادة على النحو التالي : «المادة مقولة فلسفية تفيد في تسمية الواقع الموضوعي المعطى للانسان في احساساته ... المادة هي ما يفعل في اعضاء حواسنا ، فينتج احساسات ؛ المادة واقع موضوعي معطى لنا في الاحساسات ، الخ» .

يمكننا القول بيقين وثقة ان ما من مفهوم فلسفي تعرض لهجمات عنيفة من جانب المثاليين كمفهوم المادة . والى الآن يبذل المثاليون قصارى جهدهم لافراغه من مضمونه . وهم يلجؤون الى جميع الحيل الممكنة ، ويزوّرون العلم الحديث ، ويسعون الى اقامة البرهان على انه لا وجود للمادة ، على انها قد «اضمحلت»، على انها «غير كائنة» . لكن كيف يمكن للعالم ان يضمحل ؟ أن المثاليين يجهدون على كل حال لاعطاء حججهم طابعا مقنعا بقدر الامكان . وما داموا «يبنون» حججهم على «اساس» بعض اكتشافات الفيزياء الذرية ، فلنتوقف عندها مليا .

لفهم العرض التالي ينبغي ان نأخذ في اعتبارنا ان العلماء والفلاسفة كانوا يقصدون في الماضي بكلمة «مادة» نوعا محددا من المادة ، وعلى سبيل المثال الذرات التي تتألف منها الاجسام كافة ، ولا يعنون بها مقولة فلسفية . وفي علم القرنين السابع عشر والثامن عشر كانت الذرات تعتبر غير قابلة للقسمة ، وغير قابلة للتدمير ، وكأنها اللبنات الاخيرة للكون ، اللبنات التي منها يتكون العالم قاطبة .

في اواخر القرن التاسع عشر تم التوصل الى ضرورة نبذ فكرة عدم قابلية الذرة للانقسام . فالذرة قابلة للقسمة . ولن نعرض بالتفصيل الاكتشافات العلمية للفيزياء الذرية . انما يهمنا هنا التنويه بشيء آخر : فقد رجع المثاليون الى هذه

الاكتشافات كي يخلصوا منها الى استنتاج يقول ان المادية قد شهرت افلاسها . وقد اجروا محاكماتهم العقلية على النحو التالي تقريبا : كانت الذرة غير القابلة للقسمة تعد اساس المادة، والحال انه ثبت ان في الامكان قسمها وتجزئتها . اذن فالقاعدة التي كان يقوم عليها بناء المادية بالذات قد انهارت . لكن هذه التوكيدات لا تنطوي الا على ظاهر من الحقيقة .

ماذا حدث في العلم اذن في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ؟ تم التوصل الى معارف جديدة . في الماضي ما كان معروفا ان الذرة قابلة للقسمة وانه توجد كهارب électrons وأوّيلات Protons ونواة ذرية ، واليوم اضحى ذلك معلوما . وجميع هذه المعطيات قامت شاهدا على واقع ان التصور العلمي الذي كنا نكوّنه عن العالم وعن بنية المادة قد طرأ عليه تعديل .

لقد علمنا العلم الحديث اشياء كثيرة عن بنية المادة . ولئن كنا لا نعرف في فجر تلك الاكتشافات سوى جزيئين او ثلاثة من المادة ، فقد تحققنا اليوم من هوية زهاء ثلاثين جزيئا . لكن الاهم من ذلك كله ، والعلم يؤكده ، يكمن في كون هذه الجزيئات ذات وجود مستقل عن وعينا . فهي مادية ، شأنها شأن الذرة تماما. لا مجال للقول اذن بـ «اضمحلالها» .

تظهر لنا تلك الاكتشافات العلمية على نحو حاسم قاطع انه لا يجوز الخلط بين المادية الميتافيزيقية والمادية الجدلية . فالمادة في منظور المادية الميتافيزيقية هي الذرات الثابتة غير القابلة للتدمير . أما المادية الجدلية فتنطلق من المبدأ الذي ينص على انه لا يجوز اختزال المادة الى لبنة اخيرة ــ الذرة ــ ولا ان تعزى اليها خاصية «ابدية» كائنة ما كانت . فالمادة ليست ذات خاصية واحدة يتيمة ، وانما خواصها كثيرة لامتناهية : فأشياء العالم متنوعة ، ومتنوعة كذلك خواصها .

لهذا لا يجوز الخلط بين علم بنية المادة وبين المفهوم الفلسفي للمادة كواقع موضوعي . ان اكتشافات العلم تطلعنا على بنية المادة : الذرات ، الكهارب ، او سائر الجزيئات التي تتكون منها . اما الفلسفة فتجيب على سؤال آخر : هل للعالم ، وبالتالي لهذه الجزيئات ، وجود موضوعي ، خارج وعي الانسان ؟ واذا كان الجواب بالايجاب ، فكائنة ما كانت الجزيئات الجديدة التي يكتشفها العلم (وهو يكتشف المزيد منها باستمرار) ، فانها لا تصلح لدحض المادية ، لان هذه الجزيئات مادية ، ذات وجود موضوعي ، مستقل عن الانسان .

مهما تغيرت تصوراتنا ، فلن تكون مؤهلة للشهادة على «اضمحلال المادة» . فالمادة ، بصفتها واقعا موضوعيا ، تتلقى توكيدا جديدا في مكتشفات العلم . وتصوراتنا عن بنية العالم ، عن صورته العلمية ، هي وحدها التي تتغير .

بيد ان مبدأ أزلية المادة هو بالتحديد الذي يستثير الاسئلة في كثير من الاحيان . فالانسان يرى ، اثناء حياته ، ان لكل شيء بداية ونهاية . من الطبيعي اذن ان يتساءل : من خلق المادة ؟ والعلم يجيب : انها موجودة من الازل .

وقانون بقاء المادة توكيد لذلك .

لنبدأ بمثل عادي . اذا رمينا بقطعة خشب الى النار ، لا يبقى منها سوى رماد قليل . لقد اختفى الخشب ، استهلك . لكن ليس من الصعب ان نلاحظ ان الخشب بعد احتراقه لم يختف من دون ان يخلف اثرا : فقد تحول الى مواد اخرى تتميز عن قطعة الخشب المحروقة .

كان العالم الروسي الكبير م. لومونوسوف (١٧١١ ــ ١٧٦٥) قد ركز فيما سلف انتباهه على وقائع مماثلة . وخلص من ذلك الى الاستنتاج بأنه ما من جسم ، ما من عنصر في الطبيعة يتلاشى تماما ، من غير ان يترك اثرا ، وانه لا يستطيع الانبعاث من العدم . وقد صاغ لومونوسوف هذه الافكار في القانون

المعروف ، قانون بقاء المادة . ويترتب على هذا القانون انه لا شيء في الطبيعة ينبجس من العدم ، ولا شيء يبيد نهائيا : انما الكل في تحول .

ان قانون الطبيعة الهام هذا يظهر للعيان ان القصة التوراتية عن خلق العالم متهافتة المنطق . فلئن سلمنا بأنه مر حين من الدهر لم يكن فيه في العالم شيء ، اي لم يكن فيه مادة ، فمن أنى امكن لها والحالة هذه ان تولد ؟ لكن ما دامت المادة موجودة، فهذا معناه انها وجدت ازلا ، وستبقى موجودة ابدا .

المادة والحركة لا تنفصلان .

ان الشيء الساكن ، الحجر مثلا ، لا يتحرك ما لم يُحرك . لكن لو «ألقينا نظرة خاطفة» الى داخل الحجر الساكن ، للاحظنا فيه ضربا من الحركة : فالذرات والدقائق والكهارب ــ الموجودة كما هو معروف في كل جسم ــ تتحرك فيه باستمرار ، كما تحدث فيه عملية تدمير بفعل الرطوبة والشمس والهواء . كذلك فان المنزل لا يبقى ساكنا هو الآخر ، وانما يدور مع الارض حول الشمس . وحين نجلس ساكنين ، لا نتحرك . لكن دمنا يجري، وتبدلات معقدة تطرأ على جسمنا : فثمة خلايا جديدة تولد ، وهرمة تموت . وهذه ايضا حركة .

لنأخذ ، على سبيل المثال ، الحرارة . فمن الثابت انها نتيجة حركة عدد كبير من الدقائق . ولنأخذ ، على سبيل المثال ، الماء . فهو يسخن بفضل تحرك دقائقه . اما التيار الكهربائي فهو حركة الكهارب . والتفاعل الكيميائي ــ الحركة ، تراكب الدوالف ions ــ عملية اكثر تعقيدا ايضا . كذلك فان العضوية الحية هي بدورها قيد حركة ذاتية . وفي المجتمع

الانساني تحدث باستمرار تغيرات : فالانظمة الاجتماعية تتبدل ، والناس انفسهم يتغيرون ، وسيماؤهم الاخلاقية وتصورهم عن الاحداث يتعدلان .

ما الاستنتاج الذي ينبغي الخلوص اليه من ذلك ؟ هو ذاك الذي ينص على انه توجد في العالم انواع متباينة من الحركة . فهناك ، اولا ، تحرك اجزاء المادة ، الاجسام ، اي الشكل الميكانيكي للحركة . ثانيا ، السيرورات الحرارية والكهربائية ، اي الشكل الفيزيائي للحركة . ثالثا ، تراكب الدوالف وانشطارها ، وهما يمثلان الشكل الكيميائي للحركة . رابعا ، ان التغيرات التي تطرأ على العضويات الحية هي الشكل البيولوجي للحركة . خامسا ، هناك الشكل الاجتماعي للحركة ، اي التبدلات التي تطرأ على الحياة الاجتماعية .

كان انجلز يقول ان الحركة تضم في ذاتها جميع التغيرات والعمليات التي تحدث في الكون ، بدءا من الانتقال البسيط ووصولا الى الفكر . ويترتب على ذلك ان كل تغير يحدث في داخل الاشياء ، اي في العالم ، ينبغي ان يعد حركة . ان الحركة هي تغير المادة بوجه عام .

هل يمكن ان توجد المادة في حالة لا يطرأ عليها فيها اي تغير؟ بديهي ان لا . فحتى في الازمان الاولى ، حين لم يكن على الارض بعد لا ناس ولا حيوانات ولا خلية حية ، حدثت تغيرات في قلب المادة . وبالفعل، تتألف الاجسام من ذرات ودقائق هي ابدا ودوما قيد الحركة . اذن لم يوجد قط ولا يوجد ولن يوجد ابدا جسم جامد ، ساكن مطلق السكون . والذرات والدقائق والكهارب قد وجدت على الدوام ، وبالتالي وجد على الدوام ايضا الشكل الكيميائي للحركة .

هنا يعدل القول بأنه لم توجد قط حالة كانت فيها المادة بلا حركة . ولهذا يقال ان الحركة هي شكل وجود المادة .
الحركة هي الخاصية التي لا تبلى للمادة . لا وجود لمادة بلا

حركة ، ولا وجود لمادة الا قيد الحركة .

هل يعني ذلك ان المادية الجدلية تنفي السكون ؟ كلا . فالسكون موجود في الطبيعة . لكنه نسبي . وهذا يعني انه لا وجود لظاهرات يكون فيها كل شيء في حالة سكون ، ولا يكون فيها وجود لاي حركة .

اذا كان جسم من الاجسام قيد الحركة ، فانه لا يكون كذلك الا نسبة الى شيء ما . ففي قطار قيد الحركة ، على سبيل المثال ، نكون نحن في حالة سكون نسبة الى ذلك القطار ، لكننا نتحرك مع القطار عينه .

ان التصور الجدلي عن السكون يتميز جوهريا عن التصور الميتافيزيقي . فالميتافيزيقيون يتصورون السكون انعداما لكل حركة . وانما على مثل هذا التصور تعترض المادية الجدلية .

في الطبيعة ، ليس السكون هو الذي يلعب الدور الرئيسي، على الرغم من وجود السكون النسبي ، وانما تلعبه الحركة ، التغير ، التطور . ونفي الحركة بصفتها خاصية المادة يفضي الى الاقرار بوجود إله . فبعض الفلاسفة في الاقطار الرأسمالية يعلنون ، على سبيل المثال ، ان التغير يستتبع وجود إله ، محرك للطبيعة . لكن سبق ان رأينا ان المادة في غنى عن «محرك» . فالحركة محايثة لها . والتساؤل عن اصل ما هو موجود منذ الازل تساؤل غير ذي معنى .

الزمان والمكان ، شكلا وجود المادة .

للاجسام كافة مدى ، حجم ، أي أبعاد ثلاثة: العرض والطول والارتفاع ، وهي تشغل مكانا محددا . ثم ان الاجسام جميعا هي

بالنسبة الى بعضها بعضا في نظام معين ، بصورة او بأخرى : عن قرب او عن بعد ، عن علو او عن انخفاض ، من اليمين او من اليسار . وهذا يعني ان الاجسام موجودة في المكان ، ولا يمكن ان توجد على نحو آخر . لكن سبق ان علمنا ان جميع الاشياء في العالم تؤلف ما يسمى بالمادة . يترتب على ذلك ان المادة لا يمكن ان توجد الا في المكان . ولهذا كان المكان واحدا من أشكال وجود المادة .

الظاهرات جميعا تتغير ، تتحرك ، تتطور دوما وأبدا . علاوة على ذلك ، تتعاقب الظاهرات جميعا في العالم وتتوالى بنظام معين : النهار يعقب الليل ، الاشتراكية تخلف الرأسمالية ، الخ. حدث من الاحداث يقع مبكرا ، وحدث آخر يأتي متأخرا . الاحداث جميعا لها ايضا ديمومة معينة . هذا التغير وهذا التطور ، هذا التعاقب للاحداث وفق تسلسل معين وديمومتها ، كل ذلك لا يمكن ان يتم الا في الزمان .

اذن فكل ما يجري في العالم يحدث في الزمان . لهذا كان الزمان ايضا شكلا لوجود المادة . كتب لينين يقول : «ما الكون الا مادة في حركة ، وهذه المادة قيد الحركة لا يمكن ان تتحرك الا في المكان وفي الزمان» .

المكان شكل لوجود المادة ، يحدد وضع الجسم المادي وأبعاده وحجمه . اما الزمان فيحدد مظهرا آخر لوجود المادة وتطورها : تعاقب وديمومة التغيرات التي تطرأ على الاجسام المادية . مفهوم اذن ألا تكون خواص المكان والزمان واحدة . فما خواص كل من المكان والزمان ؟

للمكان أبعاد ثلاثة . اي ان الطول والعرض والارتفاع تحدد المكان تحديدا كاملا . وأهم سمة للمكان انه ذو أبعاد ثلاثة .

يعلم كل واحد منا ان تغير الظاهرات في الزمن يتم في اتجاه واحد : من الماضي الى الحاضر نحو المستقبل . وليس للزمان مجرى معاكس . في القصص والروايات العلمية الخيالية

وحدها ابتكر البشر آلة السفر في الزمان ، تلك الآلة التي تدور عقاربها بالاتجاه المعاكس . ومن المستحيل تكرار جميع أدوار حركة من الحركات بالاتجاه المعاكس . وعليه ، ان اهم خاصية للزمان هي انه ذو اتجاه واحد ، لا ينعكس الى الوراء .

اذا احتل شيء ما محله في المكان ، فان ذلك يمكن ان يتم الان ، ويمكن ان يكون تم بالامس ، وبالاختصار في لحظة معينة. الشيء يتموضع في المكان وفي الزمان معا . اين ؟ متى ؟ هذان سؤالان وثيقا الارتباط . وهما يعينان تاريخ الحدث وموقعه في المكان .

الزمان والمكان مترابطان اذن ترابطا لا يقبل فكاكا . وما من سبيل الى فصل واحدهما عن الآخر . فالمكان لا يمكن ان يوجد خارج الزمان ، مثلما لا يمكن للزمان ان يوجد خارج المكان . وما دامت المادة موجودة في المكان والزمان ، فلا سبيل الى فصل المكان والزمان واحدهما عن الآخر ، ولا عن المادة كذلك .

حتى مطلع القرن العشرين كان العلم يتمسك بوجهة نظر العالم الكبير نيوتن (١٦٤٢ – ١٧٢٧) التي كانت تقول ان المكان والزمان لهما وجودهما المستقل عن المادة . المكان في نظر نيوتن أشبه ما يكون بصندوق ضخم او غرفة لامتناهية الاتساع ، عارية من الجدران ومن السقف ومن الارضية ، يمكن وضع الاشياء فيها وسحبها منها. والعالم المحيط شبه «مقحم» في ذلك «الصندوق» او تلك «الغرفة» . ومن هنا خلص نيوتن الى الاستنتاج بأن المكان مطلق ، اي مستقل عن المادة . كذلك هو حال الزمان الذي تصوره شيئا مطلقا ، منفصلا عن المادة ومستقلا عنها . ذلك كان تصور المادية الميتافيزيقية .

تناول الفيزيائي الكبير البرت آينشتين (١٨٧٩ – ١٩٥٥) تناولا مغايرا مسألة المكان والزمان في نظريته عن النسبية . فقد اثبت علميا صحة الفكرة التي أبان عنها مؤسسا المادية الجدلية

ماركس وانجلز والتي تنص على ان المكان والزمان مرتبطـــان واحدهما بالآخر ، ومرتبطان بالمادة ، وتابعان لخواصها .

من الممكن ان يتوهم المرء أن الزمن يمضي على منوال واحد سواء أعلى الارض ام في صاروخ يندفع بسرعة هائلة . لكـــن ثبت ان ذلك غير صحيح . فلو تحرك الصاروخ بسرعة تقـــارب سرعة الضوء ، لمر الزمن فيه بسرعة ابطأ بكثير من السرعة التـــي يمر بها على الارض . لنتخيل اننا رحلنا على صاروخ من ذلـــك النوع . ولنقل اننا سافرنا ثلاث سنوات . يوم سنعود الـــى الارض ، سنصاب بالذهول : فقد مرت عليها مئات السنين ، بله آلافها ! يصعب تصور ذلك ، لكن ذلك هو واقع الحال . اذن للارض زمانها الخاص بها ، وللصاروخ المندفع زمانه الخاص به. الزمان نسبي ، ومنوط بسرعة الحركة . فكلما تحرك جسم في المكان بسرعة اكبر ، مر الزمان بالنسبة اليه ببطء اكبر .

لكن يبدو ان المكان هو الآخر نسبي . لنتخيل قطارا يمـــر امام رصيف محطة بسرعة تقارب سرعة الضوء (تساوي سرعـــة الضوء ... ٣٠٠ كيلومتر في الثانية) . فركاب القطار سيقدرون ان الرصيف قد تقلص ، بينما سيقدر الناس الواقفون علـــى الرصيف ان القطار هو الذي تقلص . وليس هذا خداعا من قبل حاسة النظر ، وانما هو واقعة موضوعية . اذن فالمكان هو الآخر نسبي .

يسعى المثاليون المحدثون الى تزييف معنى هذا الاكتشـــاف من اكتشـافات العلم . يقولون : ما دام المكان والزمان نسبيين ، فليس لهما من وجود موضوعي، وانما وجودهما في وعي الانسان فحسب . والحال ان ذلك غير صحيح . فالاكتشـافات الجديدة لم تدحض التصور المادي عن المكان والزمان . انما التصـــورات الميتافيزيقية القديمة هي وحدها التي دحضت . وكما يقـــول الفيزيائيون : لكل نسق من الإحداثيات زمانه الخاص به، زمان نسبي . لكن هذا الزمان له وجوده الموضوعي . المكان ايضا ذو

وجود موضوعي .

والحال اذا كان الزمان والمكان موضوعيين وغير مرهونين بالانسان ، أفلا يقف هذا الاخير عاجزا امام سير الزمان المحتوم الذي لا راد له ؟

ان الانسان عاجز عن ايقاف الزمان ، لكنه ليس عاجزا امام المجرى الموضوعي للزمان . بل على العكس ، فهو يملك كل ما هو لازم كي يخضعه له وكي يتغلب عليه . والزمان يعمل لصالحنا اكثر ، كلما عرفنا كيف نستخدمه على نحو افضل .

هكذا تتميز بلدان الاشتراكية بوتائر مرتفعة لتطور الانتاج . وهذا ما يتيح لها ان تكسب زمانا في المباراة الاقتصادية مع الاقطار الرأسمالية المتطورة .

لاتناهي العالم ووحدته .

المكان لامحدود ، والزمان ابدي . لهذا يمتد العالم الى ما لانهاية من كل صوب : من الاعلى ومن الادنى ، من اليمين ومن الشمال . ليس له في الزمان من بداية ولن يكون له ابدا من نهاية .

يؤكد العلم كل التأكيد صحة التصور المادي عن لاتناهي العالم والمكان . فكوكبنا ، الارض ، لا يعدو ان يكون حبة رمل في المحيط الكوني المترامي الاطراف بغير ما حدود . ووحدة قياس الكون ليست هي الكيلومتر ، وانما ما يسمى بالسنة الضوئية ، اي المسافة التي تقطعها حزمة من الضوء في سنة بسرعة ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية . ويرصد علماء الفلك اليوم أجراما توجد على بعد مليار سنة ضوئية وأكثر . اي ان صاروخا يندفع بسرعة ٥٠٠٠٠ كيلومتر في الساعة لن يصل اليها الا بعد

بضعة ألوف من مليارات السنين ! انها لمسافة يصعب تصورها. لكن العلم يقول لنا انها ليست حدا .

انظروا الى السماء ليلا تروها مزروعة بالنجوم . وكل المنظومة النجمية التي تنتمي اليها الشمس تسمى المجرة . وتضم مجرتنا زهاء ١٥٠ مليار نجم . والحال انه توجد مليارات عدة من تلك المجرات . وقد توصل العلماء الى دراسة هذا كله بواسطة وسائل رصد حديثة في منتهى القوة : التلسكوب والراديوسكوب . لكن ليست تلك هي «نهاية العالم» بعد .

الكون اذن لا نهاية له ، لا حد ، لا تخوم . لهذا تفتقر الى اي اساس جميع المحاولات التي يبذلها المثاليون ليثبتوا ان العالم كانت له بداية وأنه ستكون له نهاية .

لنفرض ان الكون محدود في المكان ؛ في هذه الحال نجد انفسنا وجها لوجه امام السؤال المحتوم التالي : ماذا يوجد فيما وراء الكون ؟ هل هناك عالم آخر غير العالم المادي ؟

لقد اثبت العلم على نحو قاطع انه لا يوجد ولا يمكن ان يوجد عالم لامادي ، «متعالٍ» . وبالفعل ، لا وجود الا للمادة ، ولا يمكن ان يوجد سوى عالم مادي واحد . لهذا تعلمنا الفلسفة الماركسية ان العالم واحد . ولا ينبغي ان نستنتج من ذلك ان العالم الذي نحيا فيه هو وحده الموجود . لقد أفصح المفكر الايطالي الكبير جيوردانو برونو (١٥٤٨ – ١٦٠٠) عن فكرة تعدد العوالم . لكنها جميعا مادية . وبهذا المعنى تشكل جميعها عالما ماديا أوحد . ووحدة العالم تعني ، فضلا عن ذلك ، ان جميع الاشياء وجميع الظاهرات وجميع السيرورات مترابطة فيما بينها ، وانها ليست ركاما من اشياء منعزلة ، بل تشكل كلا واحدا .

كيف تم الوصول الى تصور وحدة العالم ؟ يجيب انجلز : عبر الطريق الطويل والمتعرج الذي سلكته الفلسفة وعلوم الطبيعة . في الماضي ، حين لم يكن لدى البشر تصور علمي عن الشمس ، عن الكواكب ، عن النجوم ، كانوا يفترضون ان

«العالم السماوي» (النجوم ، الشمس ، القمر) يتميز جوهريا عن العالم الارضي . هكذا ولدت فكرة عالمين اثنين . لكن تدريجيا ، وطردا مع ارتقاء العلم ، سقط حجاب السر واتضح ان «السماء» مادية في جوهرها مثلها مثل العالم الذي فيه نحيا .

سدد العالم البولوني كوبرنيكس (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) اول ضربة الى التصورات المغلوطة التي كان يكوّنها الناس عن الكون . فقد أفصح عن فكرة ان الارض ليست مركز الكون ، بل هي واحد من كواكب المنظومة الشمسية . هكذا ثبت انه لا مجال لمعارضة «السماء» الارض . فليس في السماء شيء خارق للطبيعة .

في القرن الثامن عشر برهن العالم الكبير نيوتن على ان قوانين الميكانيكا ، التي بموجبها تدور ارضنا حول الشمس ، تجعل القمر يدور حول الارض ، والكواكب الاخرى تدور حول الشمس .

تتألف الأجرام السماوية من العناصر ذاتها التي تتألف منها الارض . وقد قام الدليل القاطع على وحدة هوية العناصر الموجودة على الارض وعلى أجرام الكون الاخرى . وقد جاء هذا الدليل من نتائج تحليل الاجسام الفضائية التي تصطدم بالارض، وعلى سبيل المثال النيازك . فهذه الاجسام تتألف بوجه خاص من الحديد ، اي من عنصر كثير الشيوع في الارض . وهذا يثبت على نحو قاطع انه لا وجود لشيء لامادي في «ممثلي السماء» اولئك .

لا وجود اذن في العالم لاي ظاهرة ليست ناجمة عن الحركة ، عن تطور المادة . والمادة تشمل كل شيء . فعلها يمتد في كل مكان ، ولا وجود لشيء خارج المادة التي هي قيد الحركة والتطور او خارج الاشكال التي تتلبسها هذه المادة . وعليه ، ليس هناك سوى عالم مادي واحد ، ووحدة العالم تكمن في ماديته .

لنرَ الان الى العلاقة التي تقوم بين العلم المادي والوعي .

الفصل الثالث

المادة والوعي

الوعي خاصية المادة
الرفيعة التعضي

منذ حقب لا تعيها الذاكرة تساءل الناس لماذا يكف الانسان، بعد موته ، عن التفكير والتحرك والتكلم .

على مدى قرون وقرون سعى الناس الى ادراك سر العلاقة القائمة بين الجسم وبين ما كانوا يسمونه بالروح ، او بعبارة أدق وعي الانسان . لكن كان من الصعب الاجابة على هذا السؤال . اذ كيف السبيل الى دراسة ما لا يقع تحت نظر او سمع ، وما لا لون له ؟ ليس يسع احدا ان يعرف الفكرة التي في خلدي . ما

الفكر ، ما الفكرة ؟ لقد ضرب المثاليون واللاهوتيون أخماساً بأسداس على مدى قرون بصدد هذه الاسئلة وما زالوا يفعلون .

يعلمنا الدين ان مصدر الحياة والفكر هو الروح ، المبدأ الروحي . فالروح «شرارة الله» في الانسان . والجسم ما كان ليوجد لولا الروح ، وبدونها يموت .

اما الروح ــ كما يؤكد الدين ــ ففي وسعها الاستغناء تماما عن الجسم . انها تدلف اليه عند ولادة الانسان وتبارحه بعد موته . والى يومنا هذا ، ما يزال الاقرار بوجود آخرة الاساس الذي تقوم عليه الاديان جميعا .

لكن لنمعن النظر في المسألة .

ما الوعي الا الفكر ، الاحاسيس ، المفاهيم ، الارادة . هذه الوقائع جميعا هي من خواص الانسان . فلو لم يكن قادرا على الاحساس لما وجدت احساسات ، وبدون انسان يرغب ويشتهي لما وجدت رغبة وشهوة . والارادة لا وجود لها حيث لا وجود لمن يفترض فيه ان يفصح عن هذه الارادة .

صحيح ان الحيوانات تمتلك بعض عناصر الوعي . وعلى سبيل المثال ، الاحساسات وشكل معين من الذكاء . لكن عناصر الوعي هذه ظهرت في عهد حديث نسبيا .

ينبغي أن نستخلص من ذلك ان الطبيعة لم توجد قبل البشر فحسب ، بل قبل الكائنات الحية جميعا ايضا ، وبالتالي بصورة مستقلة عن الوعي . الطبيعة معطى اول . وما كان للوعي أن يوجد قبل الطبيعة . انه معطى ثانٍ .

لقد لوحظ منذ زمن بعيد انه يكفي احيانا ان يصاب المرء بجرح بليغ في يده حتى يغمى عليه . وقد اثبت العلم ان الاغماء هو نتيجة تدفق غير كافٍ من الدم الى المخ ، او اصابة حادة في الجهاز القلبي ــ العرقي ، او صدمات حادة ، او نزيف شديد . الوعي اذن مرهون بعمليات مادية تحدث في الجسم ، في المخ ،

في الاعصاب . ودمار الجسم يؤدي الى دمار الوعي .

اليكم مثالا آخر . يعرف الجميع انه متى كان الانسان متعبا ، متى شعر بتوعك ، اضطربت افكاره وتشوشت . وعلى العكس من ذلك ، حسبه ان يستريح ، ان يقوم ببعض التمارين الرياضية ، او ان يأخذ حماما ، حتى تتحسن حالته البدنية ، وحتى تصفو افكاره .

هكذا تعود بنا أدراجنا الى ذلك الاستنتاج الذي يقول انه لا يمكن ان يوجد وعي بلا مادة . لكن هل كل مادة تفكر ؟ حسبنا ان نلقي نظرة على العالم المحيط بنا حتى نجيب : كلا . الاحجار على سبيل المثال ، والطبيعة الخامدة الحياة بوجه عام ، لا تفكر . ولا يقدم العديد من العضويات الحية اي علامة من علامات الوعي .

متى ولد اذن الوعي ؟

. تدل العلوم الحديثة على ان الطبيعة الحية تأتي من الطبيعة الميتة . وهذه نتيجة بالغة الاهمية . يؤكد المثاليون ان الطبيعة الحية لا تمت بصلة الى الطبيعة الميتة . يقولون ان الاشياء الحية والخامدة الحياة تتميز تميزا جذريا بعضها عن بعض . فالكائنات الحية ، بخلاف الاشياء الخامدة الحياة ، تتحرك ، تتكاثر ، تنمو . وبالفعل ، ان الفارق لكبير . لكن عجز المثاليين عن تفسير ما بين هذه الكائنات والاشياء من صفات مشتركة قادهم الى الاخذ بالفكرة القائلة ان العضوية الحية تنطوي على «قوة حيوية» نوعية . وهذه القوة هي ما تميزها جوهريا ، على حد زعمهم ، عن الطبيعة الخامدة الحياة . فهل هذا صحيح ؟

صحيح ان العضوية الحيةتتميز عن الطبيعة الخامدة الحياة. لكنها ترتبط بها في الوقت نفسه ارتباطا وثيقا لا يقبل فكاكا . فالعضوية الحية مركبة ، على سبيل المثال ، من عناصر معينة كالفحم والهيدروجين والاوكسجين والحديد والكبريت والفوسفور وغيرها . وهذه العناصر واسعة الانتشار ايضا في الطبيعة الخامدة الحياة . ولا تحتوي العضوية الحية على اي عنصر غير

موجود في الطبيعة الخامدة الحياة . وانطلاقا من وقائع من هذا النوع اثبت العلم ان المادة الحية اتت من المادة الميتة .

لكن ظهور الحياة على الارض ، ظهور الخلية الحية ، لا يعني بعد ظهور الوعي . فمع الحياة لا تظهر سوى العناصر الاولى للوعي .

ان الوعي مرتبط بنشاط أنصاف كرات المخ . فهذه الاقسام من المخ هي حصيلة ارتقاء مديد ، تطور اثناءه الجهاز العصبي وطرأ تعقيد متزايد باستمرار على نشاطه . وقد ارتقى سلوك الحيوانات هو الآخر ، وتعقد ، الى ان ظهر المخ البشري ، وظهر معه الوعي الانساني .

وبلحاء أنصاف كرات المخ تحديدا ترتبط التظاهرات العليا للنشاط العصبي . ومن السهل ان نقتنع بذلك اذا أقمنا مقارنة بين ارتقاء الجهاز العصبي وبين الكيفية التي تعقّد بها سلوك الحيوانات . فعلى سبيل المثال ، نلاحظ لدى الاسماك التي لا وجود عندها لقشرة دماغية سلوكا هو في منتهى البساطة . اما الطيور فسلوكها أشد تعقيدا بكثير ، لانه تتوفر لها عناصر من لحاء المخ . ويزداد التعقيد في سلوك الكلاب بحكم تطور اللحاء لديها . وعندما نصل الى القرود الشبيهة بالانسان ، نجد ان كل حركة ارادية غدت خاضعة للقشرة المخية . ومع ذلك ، لا نستطيع ان نتكلم عن فكر الحيوانات بالمعنى الحقيقي للكلمة . فالفكر خاصية موقوفة على الانسان ، ومرتبطة ، من خلال سيرورة الارتقاء ، بظهور الدماغ الانساني ، الشكل الاعلى للمادة . **ليس الوعي نتاج اي مادة ، وانما هو نتاج مادة رفيعة التعضي ، نتاج النشاط المخي . الوعي وظيفة للمخ** ، ولا وجود له حيث لا وجود للمخ .

أما أن الوعي مرهون بالمخ ، فهذا ما يؤكده واقع ان بالامكان إحياء الانسان اذا كان الموت قريب العهد . أما اذا تصرم زمن طويل على الوفاة ، فان الخلايا المخية تشرع بالانحلال . وقد

يمكن ان تعاد وظائف القلب الى سابق عملها ، لكن ذلك غير ممكن مع وظائف المخ : اذ تحدث فيه ظاهرات لا سبيل الى الرجوع عنها . ويختفي الوعي نهائيا ، لان المخ يتوقف الى الابد عن اداء وظيفته .

ما الوعي ؟

لنأخذ اي عبارة كانت ، وعلى سبيل المثال : «اني ارى هذا الكتاب» ، او «هذا المنزل عال» . فمن المفهوم تماما في هذه الحال انه لا يوجد في رأسنا كتاب ، وانما فكرة هذا الكتاب ، كما لا يوجد منزل ، وانما فكرة المنزل . وبعبارة اخرى ، توجد في رأسنا صور اشياء وظاهرات. وكل فكرة تتألف من مدركات. ففي قولنا مثلا : «الاوراق خضر» ، يكون التعبير عن الفكرة بالمدركين : «اوراق» و«خضر» . من اين تأتي هذه المدركات ؟ من الحياة ، من الواقع . الاشياء لها وجودها الموضوعي ، وعلى اساسها نكوّن عنها مدركات . اولا الكتاب ، ثم فكرتي عن هذا الكتاب . المدركات اذن معطى ثان . في المقام الاول الواقع ، ثم انعكاسه ، فكرة هذا الواقع . لهذا قال لينين أن الفكر نسخ ، انعكاس للواقع . يعيد انتاجه ، يعكسه ، يصوره فوتوغرافياً .

يؤكد خصوم المادية في محاولة للنيل منها انها تساوي المادة والوعي ، تخلط بينهما ، تعتبر النفسي ماديا ايضا . لكنهم «ينسون» أن يحددوا اي مادية يعنون . فتوكيد مادية الحياة النفسية غريب مطلق الغربة عن المادية الجدلية . بل ان المادية الجدلية ، على العكس من ذلك ، تأخذ على الماديين المبتذلين مماهاتهم الفكر بالمادة . فهؤلاء الماديون يقرون هم ايضا بأن الوعي معطى ثان ، لكنهم لا يستطيعون ان يأتوا بتفسير صحيح لدلالته الحقيقية . يقول الماديون المبتذلون ان المخ يفرز الفكر مثلما تفرز الكبد الصفراء . وقد اطلقت عليهم هذه التسمية لأنهم يتصورون الفكر على نحو فج ، مبتذل ، تبسيطي .

لقد وجه لينين لاذع النقد الى الماديين المبتذلين لخلطهم بين

الوعي والمادة . وقد اوضح إن الوعي ليس ماديا ، انما الوعي نسخة الواقع ، صورته .

وعي الانسان اذن هو مقدرة المادة الرفيعة التعضي ، الدماغ، على عكس الواقع المادي ، اي نسخه .

الفكر واللغة

كثيرا ما يدهشنا سلوك القردة . لقد وضعت ، على سبيل المثال ، موزة امام قرد . وكان صعبا عليه الامساك بها ، لانها قريبة من نار . لكن القرد «علّم» كيف يغرف الماء من برميل صغير موضوع جانبا ، وكيف يطفىء النار ويمسك بالموزة . ونراه بالفعل يمسك بها . وبعد ذلك وضع القرد في شروط جديدة: ففي عرض نهر يوجد طوف عليه موزة وأمامه نار مضرمة. وعلى مسافة بعيدة نسبيا وضع برميل صغير فيه ماء . المعضلة اذن هي هي : فالمطلوب اطفاء النار والامساك بالموزة . وفي وسع القرد ان يغرف الماء من حوله ، اذ الماء كثير عند الطوف . ولكنه لا يفعل ، بل يشق طريقه بجهد الى حيث البرميل الصغير ليغرف منه الماء .

ان هذا المثال يظهر لنا ان القرد ليس لديه مدرك او تصور عن «الماء» ، وانه لا يعرف خواصه العامة . ان فكره مرتبط ارتباطا مباشرا بالاشياء التي تحيط به . بل اكثر من ذلك : فهذا الفكر مستحيل بدون رباط مباشر بهذه الاشياء . انه لا «يفكر» اذن الا حين توجد امامه اشياء . لكن اذا لم يكن امامه شيء ، ما استطاع ان «يفكر» .

اما فكر الانسان فمغاير نوعيا . انه يتعلم كيف يعرف الاشياء اثناء الانتاج ، اثناء العمل ، اثناء النشاط العلمي ، ويدرس

خواصها . انه يلاحظ ان ماء برميل او نهر او بئر ، وأن ماء البحر ، الخ ، يملكان خواص مشتركة ، وعلى سبيل المثال ، خاصية القدرة على اطفاء النار . ان الانسان يخلق فكرة «الماء» . وليس المقصود بها ماء البرميل او النهر او البحر ، وانما «الماء عامة» . انه مدرك عام . فالانسان ينفصل وينأى عن الاشكال المعطاة ، عن الاشياء العينية ، ويستخلص منها خواصها العامة .

حين نأتي بذكر فكرة «الشجرة» ، «الشجرة عامة» ، فان ما نعنيه بها الخواص العامة التي تميز كل شجرة ، وليس فقط الشجرة التي تنمو امام نافذتنا . ننفصل هنا عن الاشجار العينية ، نتجرد عنها . لهذا فان المدرك مجرد . وهذه السمة المميزة للفكرالانساني ، خاصيته المجردة ، هي ما ليس في متناول الحيوانات .

ما الذي يسمح لنا بأن نجرد ، اي أن نفصل عن الشيء العيني خواصه الجوهرية ؟ انه الكلام ، اللغة . فكلمة «شجرة» تدلنا على ان المقصود هو الشجرة بوجه عام ، وليس شجرة محددة بعينها . ويستحيل التعبير عن فكر مجرد بوسيلة اخرى غير اللغة .

يتكون وعي الانسان ، منذ الطفولة ، على اساس الكلمات ، على اساس اللغة ، لانه انما بواسطة الكلمات واللغة تعبر افكارنا عن نفسها . وأثناء هذه السيرورة تظهر تدريجيا سمة موقوفة على الانسان وحده : الفكر المرتبط ارتباطا صميميا باللغة . فمن المتعذر فصل الوعي الانساني ، فصل فكر الانسان عن لغته . ان وحدة لا تقبل فكاكا ، عضوية ، تقوم بين اللغة والفكر .

نوه انجلز بأن ظهور اللغة المنطوقة قد خطا بالدماغ البشري خطوة جديدة الى الامام . فتحت تأثير اي اسباب حدث ذلك ؟

سيساعدنا المثال التالي على ايجاد جواب صحيح . فقد عرف التاريخ عدة حالات عن «تربية» اطفال بين رهط ذئاب . وقد ذكرت حالة من هذا القبيل في الهند عام١٩٥٦ . فقد خطفت

ذئبة طفلة يقل عمرها عن ثلاث سنوات . وحين عثر عليها بعد بضع سنوات كانت تسير على أطرافها الاربعة وتقلد صراخ الحيوانات ، ولا تعرف بالطبع الكلام . وليس في ذلك ما يدهش : فالطفلة كانت تقلد في كل شيء الحيوانات . لكن ثمة نقطة مثيرة للاهتمام في تلك القصة . فجميع الجهود التي بذلت لتعليم تلك الطفلة النطق ذهبت أدراج الرياح . ولم تستعد البنت الصغيرة لا السيماء ولا الوعي الانسانيين . وما امكنها ان تألف الشروط الجديدة لحياتها ، فماتت .

هنا يطرح سؤال نفسه . فقد ولدت الطفلة بدماغ انساني سوي . وراحت تتطور ، ويتطور معها بالطبع دماغها . فلماذا بقي فكرها اذن في حالة تأخر لا علاج لها ؟ لانه لا يكفي ، في أرجح الظن ، ان يكون لدى الانسان دماغ سوي حتى يكون لديه وعي انساني ، بل لا بد ايضا ان يعيش في مجتمع انساني . **وخارج المجتمع لا يمكن ان يوجد فكر انساني** . وهذا الاخير يظهر كنتيجة لحياة البشر ضمن نطاق مجتمع . ولا يمكن للفكر ان يتجلى الا متى عكس الانسان الطبيعة من جهة اولى ، وإلا متى دخل ، من الجهة الثانية ، في علاقات محددة مع سائر الناس من خلال العمل والانتاج . **لقد خلق العمل الانسان ، المجتمع الإنساني** . والانسان طوّر دماغه ، وعيه ، بعمله ، بممارسته نشاطا انتاجيا . على هذا النحو لحظ ماركس ان الوعي كان ، من اللحظة الاولى لظهوره ، نتاجا اجتماعيا وأنه سيبقى كذلك ما بقي البشر . ان الوعي نتاج لحياة الانسان في مجتمع . انه ظاهرة اجتماعية .

يترتب على ذلك انه لا يمكن ان يوجد وعي خارج المجتمع ، مثلما لا يمكن ان توجد خارجه لغة . ان اللغة المنطوقة ، وسيلة تبادل الافكار ، وسيلة اتصال البشر ، هي نتاج الضرورة . الفكر لا يصبح واقعيا ، اذا جاز القول ، الا في الكلمات . اما ما دام

في رأس الانسان ، فانه لكالميت ، ممتنع على سائر الناس . لهذا نوه ماركس بأن اللغة هي الواقع المباشر للفكر . اي ان الفكر ليس له من وجود ألا في غلاف اللغة المادي . وحتى اذا لم نعبر عن افكارنا جهارا ، وانما فقط بيننا وبين انفسنا ، فاننا نلبسها رداء لفظيا . وبفضل اللغة تتشكل الافكار وتنتقل الى سائر الناس .

الفكر والآلة

طبيعي انكم سمعتم بالآلات «الذكية» . ولعل بعضكم رآها بأم عينه . انها تؤدي عملا هو من أعقد الاعمال : فهي تترجم من لغة الى اخرى ، وتقود الطائرات او القطارات ، بل تلعب الشطرنج . كما انها تنفذ بعض العمليات المنطقية التي لا يقوم بها عادة سوى الدماغ الانساني . انها «تعرف» متى ينبغي شد كابح القطار ، و«تحفظ» بعض العمليات ، الخ . انها تبدو في عملها وكأنها الفكر الانساني وقد ألبس معدنا . وهذه الاواليات عبارة عن آلات سيبرنيطيقية (السيبرنيطيقا علم الاواليات القادرة على تسيير دفة امرها بنفسها) .

هل يمكن خلق آلة تحل حلولا كاملا محل الدماغ البشري ؟ كلا . صحيح ان الآلة تستطيع ان تقوم بلا خطأ بكل ما هيأها له الانسان . بل صحيح انها تستطيع اكتشاف وقائع جديدة يجهلها خالقها . لكن الآلة لن تكون البتة سوى اداة بالنسبة الى العقل البشري . بدون الانسان تبقى مجرد «معدن ميت» .

لماذا يتفوق الدماغ البشري اذن على كل آلة ؟ لانه نتاج الحياة الاجتماعية ولأن لفكر الانسان بدوره طابعا اجتماعيا . وليس في مستطاع اي «دماغ الكتروني» ان «يعيد بناء» العالم الداخلي للانسان ، طابعه الفاعل النشيط ، غنى مخيلته ،

أحلامه ، قدرته علي تشغيل ارادته ، العالم المعقد للفن .

لا تستطيع الآلة ان تنفذ سوى الوظائف ذات الطابع الآلي ، الميكانيكي . وكائنة ما كانت العمليات التي تنفذها الاواليـــات السيبرنيطيقية نيابة عن الانسان ، فان هذه الاواليات لن تكون سوى وسيلة يستخدمها الانسان ، يستخدمها المجتمع ، لحـل معضلات اقتصادية وعلمية وما الى ذلك . الآلة لا تستطيع ان تفكر ، انما تستطيع فقط ان تساعد الانسان على التفكير . وميزة الآلات السيبرنيطيقية تكمن على وجه التحديد في انها تسهل على الانسان العمل الفكري .

الفصل الرابع

القوانين والمقولات الاساسية للجدل الماركسي

سبق ان تفحصنا ما المادة وما أشكال وجودها . وسنتفحص الان القوانين المتحكمة في حركة المادة ، وفي ارتقاء الطبيعة والحياة الاجتماعية والوعي الانساني . وهذه القوانين هي الاشمل والأعم ، اي ان الاشياء كافة والظاهرات قاطبة تنصاع لها انصياعا مطلقا . وهي تسمى قوانين الجدل . ويدرسها الجدل الماركسي ، علم أعم قوانين تطور الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني . وترتبط قوانين الجدل ومقولاته بعضها ببعض اوثق الارتباط ، ويكمل بعضها بعضا ، وتعطينا في مجملها أشمل فكرة عن تطور العالم .

١ ـ ما القانون ؟

حتى نفهم ما المقصود عادة بكلمة قانون ، لنأخذ ابسط مثال. فلو رمينا في الهواء بحصاة ، لعادت الى السقوط على الارض حتما . وكذلك حال نشاب القوس .

ما هذه الظاهرات ؟ لماذا تحدث ؟ ينبغي ان نلاحظ اولا ان الظاهرات في هذه الحالة ليست من نوع الظاهرات التي يمكن ان تحدث او يمكن ألا تحدث ، وانما من نوع الظاهرات التي لا يمكن الا ان تحدث . ان الشيء الذي يلقى في الهواء يعاود بالضرورة السقوط ارضا بفعل الجاذبية الكونية . نحن اذن هنا امام نظام، امام اطراد دقيق . وحين نصطدم في نشاطنا العملي بهذا النوع من الظاهرات ، نقول : توجد هنا رابطة ضرورية ، اساسية ، بين الظاهرات .

والقانون يعبر بالضبط عن هذه الروابط الداخلية ، الدائمة. وبعبارة اخرى ، القانون رابطة بين الاشياء والظاهرات ، لا تعقدها ظروف طارئة ، خارجية ، عابرة ، وانما تقيمها الطبيعة الداخلية للظاهرات المتعالقة . ولا يعكس القانون الروابط كافة ، وانما فقط الروابط الاساسية ، الفاصلة .

نحن لم نستوف بعد مفهوم القانون . فالقانون لا يعرف استثناءات : فقوامه ان يفعل فعله في جميع الظاهرات المنتمية الى ميدان محدد . وعلى سبيل المثال ، يعبر مبدأ ارخميدس عما هو مشترك بين جميع الاجسام التي تغطس في سائل . وبعبارة اخرى ، ان الرابطة التي يعبر عنها ذلك المبدأ (بين حجم الجسم ودفع السائل) ذات طابع شمولي . وكذلك حال كل قانون : فهو يعبر عما هو عام في الظاهرات . القانون يجعلنا نعرف اذن أعمق ما في الاشياء وأعم ما فيها .

يعكس القانون لا رابطة عامة فحسب ، بل رابطة ضرورية

ايضا . فما يعبر غنه يبدو ضروريا ، محتما .

في الحياة العملية ، تستخدم كلمة «قانون» احيانا بمعنى مغاير . فعلى سبيل المثال ، تقر دولة من الدول دستورا جديدا كقانون اساسي ينظم حياة البلاد . انه قانون ملزم حقوقيا . اما حين نتكلم عن المفهوم الفلسفي للقانون فلا يذهب بنا الفكر الى أشباه تلك القوانين التي يسنها البشر ، وانما الى القوانين التي لها وجود موضوعي في الطبيعة والمجتمع بالذات .

ما دامت الاشياء والظاهرات ذات وجود موضوعي ، فان الروابط التي نلحظها بينها تكون هي الاخرىذات وجود موضوعي، اي القوانين التي بموجبها تتطور تلك الاشياء والظاهرات . لذا فان **السمة الاساسية لقانون ما هي أن يكون موضوعيا** . هذا يعني ان قوانين تطور الطبيعة والمجتمع لا تتعلق لا بارادة البشر ولا بوعيهم ، وهذا ما تقيم البرهان عليه تجربة البشر . من ذلك ان قوانين الطبيعة تجلت قبل زمن طويل من ظهور المجتمع الانساني . فالبشر قد ظهروا على الارض في حقبة حديثة نسبيا . أما القوانين التي يتحرك كوكبنا بموجبها فقد وجدت منذ ان وجد الكوكب ، والقوانين الناظمة لظاهرة من الظاهرات تفعل فعلها من لحظة تواجد هذه الظاهرة .

ان قوانين التطور الاجتماعي لها هي الاخرى طابع موضوعي. فليس في مستطاع البشر لا ان يسنوها ولا ان يلغوها .

يتمسك الفلاسفة المثاليون بوجهة نظر اخرى . فهم ينفون الطابع الموضوعي للقوانين . كان الفيلسوف الالماني عمانويل كانط (١٧٢٤ ــ ١٨٠٨) يؤكد ان الطبيعة نفسها لا تعرف اي قانون . فكل شيء فيها هو في حالة سديمية ، والعقل البشري هو وحده الذي يدخل على الطبيعة نظاما ما . ولو لم يوجد الانسان ، لما وجدت قوانين . ويردد الفلاسفة البورجوازيون المحدثون بدورهم هذه الفكرة . لكن هل ثمة ما يسوغ لهم هذا التفكير ؟

لم يكن لدى الانسان البدائي اي فكرة عن قوانين الطبيعة .

ولم يكن يبحث عنها . وعليه ، ليست معرفتها فطرية . وفي زمن متأخر فحسب ، حين بينت التجربة للبشر وجود روابط ضرورية بين الظاهرات ، طفقوا يبحثون عنها ويجدونها في الواقع . يترتب على ذلك ان التصور المثالي عن القانون يناقض الممارسة التي تثبت الطابع الموضوعي لقوانين الطبيعة والمجتمع .

يعبر القانون اذن عن الروابط العامة الضرورية ، الموضوعية والثابتة نسبيا ، التي تقوم بين الظاهرات والاشياء . لكن الاعتراف بالطابع الموضوعي لقوانين الطبيعة والمجتمع لا ينقض بحال من الاحوال واقع أن البشر قادرون على معرفة القوانين وعلى استغلالها لصالحهم . وكل تاريخ العلم والتقنية شهادة ساطعة على الكيفية التي يستخدم بها البشر القوانين التي اكتشفوها في نشاطهم العملي . ان المادية الجدلية تقر بالدور الفاعل للوعي في حياة الانسان . وقدرتنا على الحلم ، على التخيل ، تبرهن لنا على ان الوعي لا يدرك العالم على نحو سلبي ولكنه يتقدم الواقع ويستبقه بنوع ما ويفعل فيه . معروف أن خيال جول فيرن (١) الجريء قد استبق العديد من الاكتشافات العلمية . وفي ايامنا هذه أضحت النظرية الاشتراكية العلمية قوة نافذة تساعد ملايين البشر في المعمورة على تحويل العالم القديم على أسس جديدة .

اذا اوجدت القوانين ارتباطات بين جميع ظاهرات الطبيعة والمجتمع والفكر ، سميت بالقوانين العامة ، اي قوانين الجدل.

فما هذه القوانين اذن ؟

---

١ ـ كاتب فرنسي (١٨٢٨ ـ ١٩٠٥) ابتكر فن رواية الاستباق العلمي. «م»

٢ ـ قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية

حتى نبني طائرة قادرة على الطيران بسرعة تفوق سرعة الصوت ، او صاروخا ، فلا بد لنا من مواد لا وجود لها في الطبيعة . فمن اين نأتي بها ؟ من اين نأتي ، على سبيل المثال ، بمزيج يكون أشد صلابة من الفولاذ وأكثر شفافية من البلور ؟ لقد قدمت لنا الكيمياء مفتاح المشكلة .

لقد تعلم العلماء كيف ينتجون أجساما متشاكلة التركيب Polymères ، أي مواد تتألف دقائقها من عدد كبير من الذرات . وقد اعطى الكيميائيون الاجسام ، بفضل تغييرهم لتركيب الدقائق ، صفات جديدة ، **خواص جديدة** .

ما النوعية وما الكمية ؟

ان لكل شيء سيماءه الخاصة التي بها نتعرفه . ولو نظرنا فيما حولنا لرأينا ان كل شيء (الحيوان ، الحبر ، الشجرة ، او اي شيء آخر) يمتلك خواص ، مظاهر ، سمات مميزة تعبر عما هو اساسي وجوهري وهام فيه ، عما يعيّنه ويحدده ويميزه عن الاشياء الاخرى .

لماذا نقول ان هذا الشيء قلم ؟ لانه يوجد امامنا قضيب رفيع من الغرافيت مغلف بقضيب صغير من الخشب ، وبوسعنا استخدامه للكتابة والرسم . وبذلك نكون قد حددنا الخواص الاساسية للشيء ، صفاته الباطنة ، وسلطنا الضوء على ما يجعل منه ما هو كائن عليه : نوعيته .

النوعية اذن خاصية باطنة ، اي مرتبطة بالشيء بالذات ، مجموع سماته الاساسية كلها التي بفضلها يكتسب الشيء استقرارا نسبيا ويتميز عن سائر الاشياء .

علامَ نستند للفصل في النوعية ؟ اليكم مثالا . اشترت فتاة صغيرة زجاجة حليب من مخزن . في الشارع سقطت منها

سهوا على الرصيف . لكن الزجاجة لم تنكسر ، وانما ارتدت عن الرصيف كالرصاصة . وأثارت هذه الحالة اهتمامنا ، واقتنعنا بأننا امام نوعية جديدة : «الزجاج غير القابل للكسر»؛ واستخلصنا من ذلك الاستنتاج التالي : ان تلك المادة تمتلك نوعية جديدة .

لقد اكتشفنا نوعية جديدة بفضل اكتشاف خواص جديدة . ذلك هو ما نفعله على الدوام . اذا درسنا نوعية معدن من المعادن ، فهذا يعني اننا ندرس خواصه : لونه ، قابليته للتأكسد، وزنه الذري ، صلابته ، الخ . وبعد انَ ندرسه ، نعرف خواصه الباطنة ، اي نوعيته .

خاصية الشيء اذن هي سماته النموذجية ، قدرته المميزة ، خصائصه . وهذه الخصائص الباطنة للاشياء هي ما يسمى بنوعيتها . النوعية اذن تتجلى عبر الخواص .

لا يكون للشيء عادة خاصية واحدة ، وانما عدة خواص . لهذا لا يجوز الخلط بين النوعية والخاصية . النوعية هي الوحدة الداخلية للخواص ، مجموعها كافة . نوعية الشيء اذن **لا تعبر** عنها خاصية مفردة ، وانما الخواص كلها معا . قد يفقد المعدن لونه ، اي واحدة من خواصه ، لكنه يبقى معدنا . وحين تضيع جميع الخواص او الخواص الاساسية ، تكون قد ضاعت النوعية .

لا تتسم الاشياء والظاهرات بالنوعية وحدها ، وانما ايضا **بالكمية** . وبالفعل ، الى جانب المسائل المتعلقة بنوعية الاشياء (بما هي كائنة عليه) ، نصطدم على الدوام بمسألة كميتها (كم هي ، ما أبعادها ، حجمها ، الخ) .

ان المميزة الكمية للاشياء والظاهرات بالغة التنوع . ولهذا تتجلى بأكثر الاشكال تباينا . فاذا كانت كمية الماشية هي ما يأسر اهتمامنا ، على سبيل المثال (عدد الجمال ، الخراف ، الماعز، الدربانيات) ، فاننا نحددها بأعداد : ١٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ ، الخ. واذا كنا نريد ان نعرف كم جنينا من الارز او فستق العبيد في

هذا العام بالمقارنة مع العام الماضي ، نستطيع ان نجري حسابنا على اساس النسبة المئوية ، او الاطنان ، الخ .

الكمية اذن هي قابلية الاشياء والظاهرات للقياس بواسطة أعداد تعبر عن الابعاد والوتيرة والدرجة والحجم ، الخ .

اذا تغيرت نوعية الشيء ، تغير الشيء ذاته . ولكن هل يؤدي تغير الكمية الى تغير الشيء ذاته ؟ لنرَ الى حالات عينية .

يعلم الكثير من الناس كيف تبنى السدود على الانهار. فالبناة يرمون في الماء بكتل ضخمة من الصخر . يرمون بالكتل الاولى . ولكن لا وجود للسد بعد . كذلك لن يوجد سد بعد المحاولة الثانية والثالثة . لكن كمية كتل الصخر التي رمي بها في النهر صارت كافية للتأثير على مجرى الماء . فاذا ما رمي بالمزيد منها، سُدّ النهر . وبذلك تكون منشأة مائية ــ السد ــ قد شيدت بواسطة كتل صخرية منفردة .

ماذا حدث ؟ كانت التغيرات الكمية ، ما دامت تحدث ضمن حدود معينة ، لا تمارس اي تأثير على تكوين نوعية جديدة (في مثالنا ، السد) . لكن لما بلغت هذه التغيرات مقاسا معلوما ، أثرت في نوعية الشيء او الظاهرة .

ما المقاس ؟

حسبنا ان ننظر الى العالم كي نقتنع بأن الاشياء والظاهرات لها على الدوام مقاس محدد بقدر او بآخر . فالحجر ، على سبيل المثال ، يمكن ان يكون ضخما بقدر او بآخر ، لكن الاحجار لها على الدوام ضخامة معينة . فعيننا لم تقع قط على حجر يبلغ ارتفاعه كيلومترا . ولو وجد حجر كهذا فلن يكون الا صخرا جبليا . وما قلناه يبين لنا ان المقاس ملازم لكل شيء . فكل نوعية معطاة تقابلها كمية متفاوتة التحديد ، لا كمية بغير تحديد. فالناس يمكن ان يكونوا طوال القامة ، او متوسطي القامة ، او قصار القامة . كذلك يختلف وزنهم . لكن للناس جميعا قامة محددة . فأنظارنا لم تقع قط على انسان يبلغ ارتفاعه خمسة

أمتار ، او وزنه طنا . فمثل هذه الكمية (طن) تتنافى والنوعية المعطاة (نوعية الانسان) . وكذلك الحال بالنسبة الى كل شيء . فالاشياء جميعا لها نوعية محددة تناظرها كمية محددة ، لا كمية بغير تحديد . ان المقاس مراعى على الدوام في الاشياء .

المقاس اذن هو توافق ووحدة المظاهر النوعية والكمية للاشياء.

فكل شيء هوعلى الدوام نوعية تناظرها كمية محددة .

عن ذلك تنجم نتيجة هامة : اذا حدثت تغيرات كمية في الاشياء ، فانها لا تمارس تأثيرا على النوعية ما دامت تحدث في حدود مقاس معلوم . فضمن هذه الحدود يبقى الشيء لامباليا – اذا جاز القول – بالتغيرات الكمية ، فلكأنه لا يلحظها .

لكن اذا ما تجووز المقاس ، بدأت التغيرات الكمية تؤثر في الحالة النوعية للشيء . فالكمية تنقلب الى نوعية .

ان التغيرات الكمية تتراكم على نحو خفي ولامحسوس وتدرجي ، ولا تؤثر في البداية في المظهر النوعي للشيء . لكن تأتي لحظة يبرز فيها للعيان هذا التراكم، فتؤدي التغيرات الكمية الىتبدل في نوعية الشيء . هذا ما أبانته الامثلة التي أوردناها آنفا . فحين تعلم الكيميائيون كيف يخلقون أجساما متشاكلة التركيب ويحصلون على مواد جديدة ، على نوعيات جديدة ، كان ذلك بالاستناد الى قانون تحول الكمية الى نوعية .

ينبغي ان نلحظ انه اذا كانت التغيرات الكمية تؤدي الى تغيرات نوعية ، فان العكس يحدث ايضا : فالتغيرات النوعية تؤدي الى تغيرات كمية .

لنفترض ان البشر خلقوا نوعا جديدا من فستق العبيد . فابتكارهم هذا يمثل نوعية جديدة . لكن النوع الجديد من فستق العبيد يعطي المزيد من الزيت ، وبالتالي تؤدي التغيرات النوعية الجديدة الى تغيرات كمية . الكمية تنقلب الى نوعية ، والعكس بالعكس ، اي النوعية تنقلب الى كمية .

يكمن اذن جوهر قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية في ما يلي : **ان التغيرات الكمية الطفيفة ، غير المحسوسة في البدء ، تؤدي بتراكمها التدريجي ، وفي لحظة معينة ، الى تغيرات نوعية جذرية ، تختفي على أثرها النوعية القديمة وتظهر نوعية جديدة تفضي بدورها الى تغيرات كمية جديدة .**

لكن كيف يتم تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية ؟

لقد لاحظ جميع الناس كيف يغلي الماء . في البدء ، يسخن الماء لا غير . ثم تصعد الحرارة ، فرضا ، الى ٥٠ ، ٦٠ ، ٧٠ درجة . لكن الماء ما يزال ماء . صحيح انه حدثت تغيرات : فحالة الماء السائلة قد تغيرت ، لكنها لم تتغير الى درجة تكفي لكي يفقد الماء نوعيته . وتدوم الحال على هذا المنوال الى الدرجة ٩٩ . وعندئذ ما ان تصعد حرارة الماء درجة واحدة اخرى ، حتى يشرع الماء بالغليان بسرعة متحولا الى بخار . ان حالة الماء النوعية تتغير .

يبين لنا هذا المثال على نحو ساطع كيف تنقلب الكمية الى نوعية . في البدء ، تجري العملية ببطء ، بتدرج ، فتطرأ تغيرات تمهيدية . لكن حين تتراكم هذه التغيرات في كمية كافية، تبدأ بالحدوث تغيرات نوعية مباغتة وسريعة . هذا التحول يحمل اسم **القفزة** . يتوقف اذن التطور الكمي الوئيد عند نقطة محددة، ويأتي أوان التحول الى نوعية جديدة ، وهو تحول بعيد عن ان يكون هذه المرة بطيئا وتدرجيا. ان لحظة الانتقال الى هذه النوعية الجديدة تمثل قفزة . لهذا حدد لينين **القفزة بأنها أشبه بانعطاف حاسم من النوعية القديمة الى الجديدة ، بتغير مباغت في التطور .**

تشتمل سيرورة التطور على طورين ، وتتم في شكلين : تغيرات كمية بطيئة ، طفيفة ، وتغيرات نوعية جذرية وسريعة . وتحدث التغيرات الكمية البطيئة على الدوام في حدود المقاس القديم ، النوعية القديمة . ولا يكون قد طرأ هنا بعد اي تغير

جذري على الاشياء والظاهرات . وبهذا المعنى ، تمكن تسميتها بالتغيرات **التطورية . والتطور سيرورة متواصلة ، تدرجية ، بطيئة ، بدون قفزات مباغتة ، بدون انقلاب الى نوعية جديدة .**

اما التطور المرتبط بتحول جذري لما كان موجودا سابقا ، بانقلاب نوعي في العلاقات الاجتماعية ، في الافكار العلمية ، في وضع التقنية ، الخ ، فان هذا التطور يسمى ثورة .

بيد أنه ينبغي ان نلاحظ ان مفهوم«التطور» غالبا ما يلحق به التشويه على أيدي الميتافيزيقيين .

فبعضهم يؤكد ان التقدم لا يتم الا بطريق التطور ، بدون أي قفزة . يقولون : ليس في العالم سوى تغيرات كمية . ولا يحدث في الطبيعة اي تغير نوعي . وهذا التصور ينتمي الى ما يسمى بالتطورية المبتذلة ، لانه يفهم التطور فهما فجا ، مبتذلا ، شائها. وينكر أنصار هذا التصور ضرورة النضال الثوري ضد الاستعمار والامبريالية .

وثمة تصور ميتافيزيقي آخر لا يقل عن سابقه ضررا ، يقول به الفوضويون ، وبوجه عام المغامرون «اليساريون» . فهم ينكرون سيرورة التطور ، سيرورة التغيرات الكمية ، ولا يعترفون الا ب «القفزات» و«الانفجارات النووية» بدون مراحل تمهيدية ، بدون تراكم تدريجي للقوى .

خلافا لهذه التصورات الميتافيزيقية الضيقة ، تنطلق المادية الجدلية من المبدأ الذي ينص على وجود صلة وثيقة بين السيرورة التطورية والسيرورة الثورية . وتكمن هذه الصلة في كون كلتا السيرورتين لا تقوم لها قائمة بدون الاخرى: فبدون تغيرات كمية، تطورية ، لا توجد تغيرات ثورية ، نوعية ، وبدون تغيرات نوعية ، ثورية ، لا يوجد مقاس جديد ، لا تقوم مرحلة جديدة ، اي لا يكون هناك تطور .

لنرَ الان الى مختلف انواع القفزات وبما هي منوطة .

أما وأن هناك انواعا متباينة منها ، فالامثلة التالية تسهـــل علينا الاقتناع بذلك . ان تحول القرد الى انسان هو ، بلا جدال ، قفزة في تطور العالم الحيواني دامت لا يوما واحدا ، وانما حقبة تاريخية مديدة للغاية ، عشرات الآلاف من السنين . ويقدم لنا مثال الماء المغلي ،الذي تحدثنا عنه آنفا ، شكلا آخر من القفزة . وهذان الشكلان يتميز واحدهما عن الآخر بكون اولهما يتمخض عن تغيرات جذرية في أجل طويل من الزمن نسبيا ، بينمـــــا يتمخض عنها الثاني بصورة شبه فورية . وعليه ، يلعب الزمن دورا كبيرا في تعيين شكل القفزة .

انه لمن السهل ان نفهم ان الاشكال المختلفة للتحول من نوعية الى اخرى ، اي‌الانواع المختلفة للقفزة ، تتعلق بطبيعة الظاهرات قيد التبدل وبالشروط التي تتبدل فيها . ويتضح لنا ذلك بجلاء كبير في الامثلة المستقاة من الحياة الاجتماعية . ففي المجتمـع الرأسمالي ، تحدث القفزة غب معركة فاصلة ، على اعتبار ان المجتمع منقسم الى طبقات يناصب بعضها بعضا العداء . أما في تطور المجتمع الاشتراكي ، حيث لا وجود لطبقات متعادية ، فان القفزات ، الانقلابات العميقة ، تتم في شكل تلاشٍ تدريجـــي لعناصر النوعية القديمة ونمو عناصر النوعية الجديدة . وهنا تتم التغيرات الجذرية طردا مع تراكم النوعيات الجديدة .

وفي الاقطار التي خلعت عنها نير الاستعمار ، تتم التحولات الجذرية في حياة الشعب ، وعلى سبيل المثال انشاء تعاونيات فلاحية وبناء صناعة ، بصورة تدرجية : فبنية الاقتصاد القومي تتعدل ، وأشكال الانتاج القديمة تضمحل ، وترى النور اشكال جديدة .

مما تقدم قوله نستطيع ان نخلص الى الاستنتاج التالي : ان قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية يميط لنا اللثام عن الاوالية الداخلية لتكوين النوعيات الجديدة ، اي اســـاس التطور بالذات . لكن ما القوة المحركة له ، ما مصدره ؟ ان قانونا

آخر من قوانين الجدل يجيب على هذا السؤال ، قانون وحدة الاضداد وصراعها .

٣ ـ قانون وحدة الاضداد وصراعها .

تشغل فكرة التناقضات منذ بعيد الازمان العلماء . فالميتافيزيقيون ، على سبيل المثال ، كانوا ينطلقون من المبدأ الذي يقول بعدم جواز وجود تناقضات في كلامنا ، ليؤكدوا انه لا يجوز ان توجد في الطبيعة ايضا تناقضات ، خواص متناقضة . كان زينون ، الفيلسوف الاغريقي الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ، يقول ان التناقض ، أينما كشف النقاب عنه ، شيء زائف ، مستحيل ، لامعقول .

يتمسك الفلاسفة البورجوازيون المحدثون بوجهة النظر عينها . يؤكد ، على سبيل المثال ، الفيلسوف الاميركي الرجعي سيدني هوك ان الاحكام والإثباتات والبراهين يمكن ان تكون متناقضة ، ولكن لا يمكن بحال من الاحوال ان تكون الاشياء والظاهرات متناقضة هي الاخرى .

والحال ان العلم والممارسة يبرهنان لنا على ان الطبيعة ، بل الاشياء بالذات ، تنطوي على تناقضات ، على مظاهر متناقضة . لنتفحص عضوية الانسان وعضوية الحيوان ؛ فثمة سيرورتان متعاكستان متواقتتان تحدثان فيهما : فخلاياهما تنمو وتفنى في آن معا . واذا توقفت احدى السيرورتين ، ماتت العضوية . وأشباه هذه الامثلة نصادفها في كل خطوة . انها تناقضات الطبيعة بالذات . انها محتومة .

بين الاضداد التي يقوم بينها ارتباط تنبجس على الدوام

علاقات . لهذا تحدث بينها «احتكاكات» ، «صدامات» ، «اختلافات» . وتظهر التناقضات على الدوام حيثما تصادمت الاضداد ، نظرا لان التصادم هو تصادم ميول وقوى متعاكسة . **لهذا فان التناقض هو علاقة بين الاضداد ، والاضداد بالتالي هي مظاهر التناقض .**

لو كانت الاشياء والظاهرات لا تتغير ، لو كانت تلبث على ما هي عليه ابدا ، لما تمخضت عنها أضداد ، مظاهر ينفي بعضها بعضا . لكننا نعلم مما تقدم آنفا ان الاشياء والظاهرات في حركة دائمة ، وانها تتغير وتتطور . لهذا لا تكف مظاهر مختلفة عن الظهور والتجلي في الاشياء ؛ فبعض من عناصرها يشيخ ويموت ، وبعضها الآخر ـ الجديد ـ يولد وينمو . خلاصة القول، تظهر على الدوام في العالم الذي هو قيد تطور جوانب متضاربة، قوى متعاكسة ، وبالتالي تناقضات .

ما قوام العلاقات بين هذه التناقضات ؟

ان ما تقدم قوله يظهر للعيان الصلات القائمة بين الاضداد . وهذه الصلات وثيقة للغاية ، لا تفصم لها عرى ، بحيث لا يمكن للاضداد ان توجد خارج نطاقها . على هذا النوع من الصلات نطلق اسم **وحدة الاضداد** . وينكر الميتافيزيقيون هذه الوحدة . يرون ان كل ضد له وجوده المستقل عن الضد الآخر . وفي الواقع ، ليس الامر كذلك . لنأخذ كمثال طريقة اشتغال مصنع او معمل او تعاونية .

لكل منشأة نفقاتها بالعملة وبالبضائع . ولكن لها ايضا مدخولها ، اي مردودها من العملة والبضائع . هل يمكن لمنشأة ما ان تنفق من غير ان تجني اي ربح ؟ كلا ، بالطبع. لكنها لا تستطيع ايضا الاستمرار في العمل اذا لم تنفق مالا على التجهيزات والمواد الاولية ، الخ .

وهوذا مثال آخر . تشتمل حياة الحيوان او الانسان على سيرورتين متعاكستين : فثمة خلايا تولد ، وأخرى تفنى وتموت.

لكن تصوروا انسانا يقول : كي نطيل أمد الحياة يجب ايقاف سيرورة فناء الخلايا ودمارها ، وعدم الابقاء الا على التجدد ، على خلق خلايا جديدة . ان الانسان الذي يحاكم الامور هذه المحاكمة يرتكب خطأ فادحا : فالحياة تشتمل على سيرورتين متعاكستين يستحيل فصل واحدتهما عن الاخرى .

ان من يحاول افناء احد الضدين سيفني لا محالة الضد الآخر ، وبالتالي الحياة نفسها . ان سيرورة الحياة سيرورة واحدة ، وفي الوقت نفسه متناقضة .

يحاكم الميتافيزيقيون المحدثون الامور على المنوال التالي تقريبا : ان للمجتمع الراسمالي جوانبه «الخيِّرة» و«الرديئة» . ولشفاء الراسمالية من كل ما فيها من «رداءة» ، يقترحون تطوير الجوانب «الخيِّرة» وازالة الجوانب «الرديئة» . وعندئذ يقوم ، على حد ما يزعمون ، مجتمع «الازدهار العام» . وهذه المحاكمة تشبه محاكمة من يبغي ان يحافظ في العضوية البشرية على توالد الخلايا الجديدة وايقاف عملية فناء الخلايا الهرمة . لكن كما يستحيل فعل ذلك في العضوية ، يتعذر تحقيقه ايضا في المجتمع البورجوازي .

ان الاضداد هنا لا تتضايف ، بل تتحد . انها تتداخل لتؤلف معا ما يسمى بالمجتمع البورجوازي . ولهذا تستحيل «ازالة» احد جوانبه والمحافظة على الجانب الآخر . لقد سعى العماليون الانكليز ، عند تسلمهم مقاليد السلطة ، الى «تحرير» بلادهم من بعض شرور الرأسمالية ، ولكن لم تجد محاولتهم هذه نفعا . وهذا أمر مفهوم : فللقضاء على «الجوانب الرديئة» في الرأسمالية ، اي شرورها ، لا مناص من القضاء على الرأسمالية ذاتها . وليس ثمة طريق آخر .

وحدة الاضداد اذن تكمن في كونها مترابطة فيما بينها ترابطا لا تنفصم له عرى ، وفي كونها تؤلف معا سيرورة متناقضة

واحدة . ان الاضداد لا توجد الا لانها أضداد .

ان صدام الميول المتعاكسة يسمى صراع الاضداد . وما دام كل شيء ، كل سيرورة ، يتألف من مظاهر متناقضة ، فمن السهل الاقتناع بأن هذه المظاهر في حالة دائمة من التصادم ، من التصارع . ولكن بفعل اي سبب ؟

ان صراع الاضداد ينشأ عن كونها مترابطة فيما بينها ، مؤلفة لوحدة ونافية لبعضها بعضا في آن معا . وفي حالة كهذه ، لا مناص من الاحتكاكات والمصادمات والصراع . وعليه ، اينما وجدت أضداد تؤلف وحدة ، وجد صراع فيما بينها . وينبغي ان نفهم بهذا الصراع «نزوع» كل ضد الى ان يفوز برجحان الكفة في ظاهرة محددة .

وحدة الاضداد وصراعها موجودان اذن وجودا فعليا . فأيهما يلعب ، والحالة هذه ، الدور الفاصل في التغيير ؟

ليست وحدة الاضداد هي التي تلعب الدور الرئيسي ، وانما يلعبه صراعها . فهو لا يتوقف لحظة واحدة ، وفيه يكمن معنى العلاقات المتبادلة بين الاضداد . فما دامت الاضداد ينفي بعضها بعضا ، فانما تكون بالتالي في حالة من الصراع الدائم . ولهذا **اذا كانت وحدة الاضداد نسبية ، مؤقتة ، عابرة ، فان صراعها ،** كما يعلمنا لينين ، **مطلق مثلما هو مطلق التطور ، ومثلما هي مطلقة الحركة** . اي ان **صراع الاضداد هو مصدر التطور والحركة** .

لنتفحص بعض الامثلة .

تظهر نوعية جديدة الى حيز الوجود غب تراكم تدرجي للتغيرات الكمية . لكن ما الذي يطلق حركة هذه السيرورة ؟ حين يسخن الماء ، على سبيل المثال ، تتسارع سرعة حركة دقائقه . وتضعف رويدا رويدا قوة جاذبية الدقائق ، التي بفضلها يحافظ الماء على حالة سيولته . وعند درجة الغليان تضعف الى حد لا يعود معه في وسعها ان تبقي على تماسك الدقائق معا ، فيبدأ

الماءبالتحول بسرعة الى بخار . ويحدث ذلك نتيجة لصراع قوتين متعاكستين : من جهة قوة جاذبية الدقائق ، ومن الجهة الثانية قوة التنافر ، وهما قوتان تنزعان الى فصل الدقائق بعضها عن بعض . ويدوم صراع هاتين القوتين الى ان تأتي لحظة ينحل فيها التناقض : فالقفزة تضع حدا لوحدة الاضداد . وتظهر الى حيز الوجود حالة نوعية جديدة مع تناقضات جديدة : فالماء يتحول الى بخار . وينجم عن ذلك ان انحلال التناقضات يولد نوعية جديدة، يولد التطور ، الحركة ، التغير .

كذلك حال المجتمع . فحين تفضي التناقضات التي تنخر النظام الرأسمالي الى الثورة الاشتراكية ، فهذا معناه ان الساعة قد أزفت لحل هذه التناقضات. وبنتيجة صراع الاضداد ، وإلغاء التناقضات، ينهض المجتمع الى درجةاعلى: فالمجتمع البورجوازي القديم يحل محله مجتمع جديد ، المجتمع الاشتراكي . ان صراع الاضداد وإلغاءها هما ، كما نرى ، مصدر تطور المجتمع .

يكمن جوهر قانون وحدة الاضداد وصراعها اذن في كون **التناقضات الداخلية ملازمة لكل شيء ولكل سيرورة ؛ وهذه التناقضات هي في حالة وحدة لا تفصم لها عرى ، وفي الوقت نفسه في حالة صراع دائم** . وصراع الاضداد هذا هو المصدر الداخلي ، القوة المحركة للتغير . وقد قال لينين عن هذا القانون **انه اساس الجدل ، جوهره .**

لنحاول الان توضيح الخصائص الملازمة لتناقضات الحياة الاجتماعية .

ان التناقض القائم بين الرأسمالي والعامل شيء ، وشيء آخر هو التناقض القائم بين عاملين تتطابق مصالحهما الطبقية .

التناقضات في الحالة الاولى لا تقبل توفيقا ، فهي تناقضات طبقية ؛ أما في الحالة الثانية فانها تناقضات تقوم بين رفاق العمل . لهذا يتوجب ، بغية حلها ، التصدي لها بكيفية مختلفة .

الاولى تسمى **التناقضات التناحرية** ، والثانية **التناقضات غير التناحرية** . وتوجد التناقضات التناحرية حيثما وجد صراع بين مصالح لا تقبل توفيقا . والتناقضات التناحرية ، غير القابلة للتوفيق ، هي في المجتمع التناقضات التي تقوم بين قوى اجتماعية متعادية ، بين طبقات . وعنها تتولد منازعات ومصادمات بين كبار الملاكين العقاريين والفلاحين ، بين البورجوازية والبروليتاريا ، بين شعوب المستعمرات والامبرياليين .

وسنوضح ذلك بمثال المجتمع الرأسمالي .

ان المجتمع البورجوازي قد فات أوانه . صار كابحا للتقدم الاجتماعي . ولا سبيل في ايامنا هذه لتنظيم الانتاج بنجاح الا على أسس التخطيط . لكن يتعذر فعل ذلك في شروط الراسمالية ، لان الملكية الخاصة والمزاحمة والمنافسة الاقتصادية بين الراسماليين ، بين الشركات ، هي صاحبة اليد الطولى في المجتمع الراسمالي . وهذا ما يؤدي الى الفوضى في الانتاج ، وينصب العراقيل امام التخطيط ، ويزرع البلبلة في الحياة الاقتصادية . وبفعل ذلك ، تنشب ازمات فيض انتاج بصورة دورية في المجتمع الرأسمالي . وتتزايد البطالة ، ولا يعود في مقدور الجماهير الشعبية شراء البضائع . وهذا ما يجر الى تقليص الانتاج واستفحال البطالة .

وترتبط بهذا التناقض الأساسي جميع التناقضات الاخرى التي تنخر المجتمع الرأسمالي الحديث والتي تقوده الى هلاكه المحتوم .

ان تناحرا عميقا يقسم الدول الامبريالية من جهة ، ومن الجهة الاخرى البلدان التي فازت مؤخرا باستقلالها القومي او التي تناضل في سبيل تحررها . ان شعوب آسيا وأفريقيا والشرق الاوسط وأميركا اللاتينية ما عادت ترغب في تحمل النهب الامبريالي ، فنراها تناضل للانعتاق من نيره . ان التناحر

بين العمل والرأسمال ، والتناقضات بين الشعب والاحتكارات ، وتفسخ النظام الاستعماري ، والتناقض بين الدول القومية الفتية والقوى الاستعمارية الهرمة ، ثم ـ وهذا هو الاهم ـ التقدم السريع للاشتراكية العالمية ، ان هـذا كله يقوض ويخرب الامبريالية ، ويضعفها ، ويختصر ايامها . ذلك هو الواقع الرأسمالي ، الممزق بالتناقضات التناحرية الداخلية التي تجر النظام الرأسمالي ، آخر انظمة الاستغلال ، الى هلاكه .

كيف تتم اذن تصفية التناقضات التناحرية ؟

ان التناقضات التناحرية تناقضات لا تقبل توفيقا بين قوى اجتماعية ، اهداف ، تصورات ، مصالح متعادية ، وتؤدي الى منازعات ومصادمات ، وتتم ازالتها عن طريق صراع ضارٍ ، عن طريق ثورة اجتماعية . ولا سبيل الى تصفية هذا التناحر في اطار العلاقات الاجتماعية القديمة ، بل تستوجب ازالته تدمير هذه العلاقات بالثورة . هل يعني ذلك ان أشكال وطرائق ازالة التناقضات التناحرية واحدة على الدوام ؟ كلا . فالامر مرهون بالشروط التي تتم فيها تصفية التناقضات التناحرية . لهذا نلاحظ ، في شروط تاريخية مختلفة ، أشكالا مختلفة لازالة التناقضات التناحرية . فعلى سبيل المثال ، فازت بعض الاقطار باستقلالها القومي عبر كفاح مسلح طويل النفَس ضد الاستعماريين . ونالته اقطار اخرى عبر نضال جماهيري ، طويل الامد وعنيد ، من دون ان تدعو الحاجة الى انتضاء السلاح .

تتميز التناقضات غير التناحرية عن التناقضات التناحرية بكونها تعبر عن تناقضات قائمة بين قوى اجتماعية لها في الوقت نفسه مصالح حيوية مشتركة . من هذه التناقضات على سبيل المثال تلك التي تقوم بين الطبقة العاملة والطبقة الفلاحية ، بين العناصر المتقدمة والعناصر المتأخرة في المجتمع الذي يشيد حياته على مبادىء جديدة .

في حالة التناقضات غير التناحرية ، التي يتسم بها المجتمع الاشتراكي ، لا تتفاقم حدة التناقضات ، فلا تتعمق ولا تنقلب الى تناحر عدائي . بل على العكس ، فاذا كانت الطبقات متحدة بمصالح حيوية مشتركة ، نزعت التناقضات الى ان تخف حدة ، الى ان تتسوى . لهذا تتميز الطرائق المستخدمة في ازالة هذه التناقضات عن تلك التي تستخدم في ازالة التناقضات التناحرية. فتصفيتها لا تتم عن طريق ثورات اجتماعية او انقلابات ، وانما باللجوء الى التربية ، الى النقد والنقد الذاتي، وكذلك الى طرائق اخرى يفرضها الوضع العيني . والتناقضات في المجتمع الاشتراكي يتم اكتشافها في الوقت المناسب ، وبهذا الشكل يتم اتخاذ الطرائق العينية اللازمة لازالتها . ولذلك لا تؤدي الى وقوع تصادم بين قوى او مصالح متعادية ، اذ ان في المجتمع الاشتراكي وحدة بين المصالح ، كما ان الوحدة الايديولوجية والسياسية للمجتمع قاطبة راسخة وموطدة .

في الاقطار التي خلعت عنها نير الاستعمار ، لا سبيل الى ازالة التناقضات الاجتماعية الا اذا نهجت هذه الاقطار الطريق غير الرأسمالي للتطور . وغياب التناقضات التناحرية في المجتمع الاشتراكي لا يعني البتة انه لا يوجد اي تناقض بوجه عام . ففي ظل الاشتراكية تبرز الى حيز الوجود تناقضات غير تناحرية يمكن التخلص منها في اطار النظام الاجتماعي القائم .

لكن كيف يتم التطور ؟ في اي اتجاه يسير ؟ ان قانون نفي النفي يقدم لنا الجواب على هذين السؤالين .

٤ ـ قانون نفي النفي

نعلم جميعا اننا نلاقي عند كل خطوة في العالم الذي يحيط بنا ظاهرة الشيخوخة ، الدمار ، الموت . وأيا تكن الظاهرة الطبيعية التي نأخذها كمثال ، نراها تبدأ (اي انه كان ثمة زمن

ولدت فيه) ، تتطور ، تنمو ، تراكم قوى ، ثم تتوقف .

وكما نرى، يكمن جوهر النفي في ما يحدث في العالم بصورة دائمة من فسخ وانتفاء وزوال لظاهرات قديمة وولادة ظاهرات جديدة . وعليه ، يعني النفي تطور ظاهرة ما ، الانتقال بهذه الظاهرة الى درجة جديدة ، أعلى .

وحتى نفهم الامور على حقيقتها ، يجب ان يبقى ماثلا في أذهاننا ان سيرورة نفي وموت الظاهرات التي فات أوانها تتم في أشكال شتى . فعلى سبيل المثال ، الآلة تهترىء ، وعندما تهترىء يلقى بها الى مقبرة الحدائد. وهذا مثال على النفي بالمعنى العادي، اليومي ، للكلمة ، على نحو ما تحدثنا عنه أعلاه .

واذا لم يكن فعل النفي يعني شيئا آخر سوى تدمير الآلة ، فان هذا الفعل لا يخلق اي قاعدة لتطور جديد . ونظير هذا النفي نلاقيه في الحياة ايضا . وفي بعض الظروف يغدو ضروريا . بيد ان الاتجاه الغالب للحركة التاريخية هو الخلق .

ان الظاهرات الجديدة التي تظهر في الطبيعة وفي المجتمع تسير هي الاخرى في دربها المعهود : فبعد مضي فترة من الزمن تشيخ وتخلي الساح لقوى وظاهرات جديدة . واذا كانت في السابق جديدة ، وبالتالي نافية لما هو بال ، فانها في الوقت الحاضر تمسي هرمة بدورها ، وعرضة للنفي من قبل قوى اكثر حداثة منها . ذلكم هو **نفي النفي** . وبما ان العالم يشتمل على عدد لامتناه من الظاهرات ، فان سيرورة النفي سيرورة دائمة ، متواصلة الى ما لانهاية، اي ان نفي القديم وتوكيد الجديد يتكرران بلا انقطاع .

إلامَ تنتهي هذه السيرورة ؟ هاكم مثالا . ان زراعة نبات من النباتات تتألف من سلسلة من الاطوار المتلاحقة : إنتاش الحبة ، نمائها ، نضجها ، الحصاد . وأثناء الانتاش تكف الحبوب الموجودة في التربة عن الوجود ، تكف عن ان تكون حبوبا . انها تواجه

النفي . وبدءا منها تولد نباتات جديدة ، تزهر ، تخصب ، وأخيرا تعطي ثمارا ، اي حبوبا . ان كل سيرورة زراعة النبات هي نفي للنفي .

صحيح اننا رجعنا الى نقطة الانطلاق ، لكن ثمة خطوة الى الامام قد خطيت . ولو ان الناس انتهوا عند جني المحصول الى النتائج الكمية التي كانت قائمة من البداية ، لما كانوا كلفوا انفسهم جهد فلاحة الارض . ان البداية (بذار الحبة) والنهاية (جني المحصول) في مثالنا درجتان من التطور مختلفتان نوعيا : درجة دنيا ودرجة عليا . وعليه ، لا يراوح التطور في مكانه ، وانما يسير وفق حركة صاعدة .

يكمن جوهر قانون نفي النفي اذن في ما يلي : خلال سيرورة التطور تنفي كل درجة عليا وتزيح الدرجة السابقة ، لكنها ترفعها في الوقت نفسه الى مستوى جديد وتصون كل المضمون الايجابي المكتسب اثناء تطورها .

ان النفي الجدلي للنفي يفترض **الصيانة والنفي** على حد سواء ، لكن ما يصان في هذه الحال هو الايجابي في الظاهرة القديمة . ولولا ذلك لكان استحال التقدم . ان النفي الجدلي آن من آناء الارتباط بدرجة التطور السابقة ، انه نتيجة وعاقبة . ويعبر هذا النفي عن التسلسل الملحوظ في كل تطور . ويكمن معنى النفي الجدلي ، تحديدا ، في تجاوز درجة التطور السابقة، لا في طرحها ونبذها . فعلى سبيل المثال ، لم تظهر الفلسفة الماركسية من العدم . انما هي مواصلة خصبة لكل قيّم أبدعه الفكر الفلسفي سابقا .

ما طابع التطور ؟

معلوم ان الانسان بدأ نشاطه في مضمار العمل بابتكار الادوات . وفي درجة معينة من التطور التاريخي ، حلت محل الادوات الحجرية الادوات المعدنية . وهذه الاخيرة هي بنوع ما نفي الادوات الحجرية ، لكنها تصون في ذاتها جميع العناصر

الايجابية في الادوات الاولى ، وعلى سبيل المثال قابليتها لان تقطع ، وشكلها (الذي أورثته الفأس الحجرية على سبيل المثال للفأس الحديدية) ، الخ .

كان ابتكار الآلة تقدما جديدا في ارتقاء ادوات الانتاج . والنول الآلي هو نفي النول اليدوي . لكنه نفي جدلي ، لان مبدأ عمل النول القديم ظل مصانا بنوع ما . وكذلك هي حال التقنية على الدوام . فأنظمة الآلات الجديدة هي نفي الانظمة الفائتة ، لكن مع المحافظة الالزامية على جميع العناصر الثمينة التي اكتسبها الانتاج في الماضي .

ذلك هو طابع كل ارتقاء يتم عن طريق نفي النفي . والطور الاعلى يسمى بهذه التسمية لانه يرفع ويغني التطور في مجمله . ونخلص من ذلك الى نتيجة هامة : **ان التطور الذي يتم بطريق نفي النفي يشكل عامل تقدم .**

هذا الاستنتاج يسري على ارتقاء الطبيعة كما على ارتقاء المجتمع البشري . ففي الطبيعة يتمثل الارتقاء في الانتقال من المادة اللاعضوية الى درجة اعلى ، الى الحياة . وفي المجتمع يتمثل الارتقاء في الدرب الذي تم اجتيازه بدءا من نظام المشاعة البدائية ووصولا الى الاشتراكية ، المرحلة الاولى للشيوعية . وكذلك الحال في ارتقاء العلم .

هكذا نرى في كل مكان القانون ذاته : فالارتقاء يتلبس طابعا صاعدا ، اي انه يمضي من الادنى الى الاعلى ، من البسيط الى المعقد . ذلك هو جوهر قانون نفي النفي .

اما اولئك الذين يسترشدون بتصور بورجوازي ، مثالي ، عن العالم ، فان فكرتهم عن التطور فكرة متشائمة ومعاكسة تماما .

ان بعض الفلاسفة وعلماء الاجتماع البورجوازيين ، الشهود على انهيار العالم الرأسمالي ، يصورون أفول هذا النظام وكأنه

أزمة في الثقافة ، في الفكر ، في المذهب الانساني بوجه عام . انهم يتكلمون عن «الكارثة الذرية» ، عن «نهاية كل حضارة» ، عن «نهاية العالم» ، الخ . لكن العلم والممارسة يدحضان توكيدات الفلاسفة البورجوازيين هذه . فالارتقاء الصاعد للطبيعة والمجتمع الانساني قانون موضوعي ، لا يقبل فسخا .

والشاهد عليه النجاحات التي تنتزعها البلدان الاشتراكية في تنمية اقتصادها وتطوير ثقافتها . وتؤكده ايضا خطط تنمية الاقطار التي خلعت عن كاهلها نير الاستعمار .

ولئن خالجنا احيانا انطباع بأن نتيجة نفي النفي هي العودة الى الماضي ، فذلك ليس الا في الشكل وحده ، أما في الواقع، فان ما كان آنف الوجود يُغنى ويُرفع الى درجة اعلى في خلال سيرورة النفي .

ان تقدم الطبيعة والعلم أشبه ما يكون باللولب . فهو ينطوي على عدد كبير من اللفات ، لكن هذه اللفات لا تلتقي ابدا ، لا يكرر بعضها بعضا ابدا . أرأيتم كيف يكون صعود درج حلزوني ؟ انه ليخيل الينا ان من يصعد يلف حول نفسه ، لكنه في الواقع اذ يلف على نفسه يصعد الى اعلى فأعلى باستمرار . وهذا لانه يتبع لولبا لا دائرة . هذا التشبيه يعبر عن جوهر قانون نفي النفي .

يتم الارتقاء اذن وفق مسار لولبي ، ومع كل لفّة جديدة (نفي) تظهر نوعية جديدة ، مما يرفع الارتقاء الى درجة اعلى .

في الحياة اليومية ، نفهم الجديد على انه ما يصنع لاول مرة ، ما يظهر حديثا . لكن المعنى الفلسفي لهذا المفهوم مغاير قليلا ، وأكثر عمقا . فاذا ظهرت في الغرب ، على سبيل المثال، مدرسة فلسفية تسمى بالجديدة ، لكنها تكتفي تحت قناع الجدة بأن تنفخ الحياة من جديد في افكار بالية كان قد قام الدليل على تهافتها منذ زمن بعيد ، فاننا لا نستطيع البتة ان ندعوها ظاهرة جديدة . بل على العكس ، فهي ظاهرة قديمة ، فات أوانها ، ولا

مستقبل لها .

غالبا ما يظهر القديم في الحياة تحت قناع الجدة . وهذا شكل كثير الشيوع ، شكل مبطن لصراع القديم ضد الجديد . لنأخذ مثالا .

معلوم أن أشكال الاستعمار قد شهرت افلاسها . واليوم يسعى الامبرياليون الى فرض أشكال جديدة من التبعية الاستعمارية على البلدان المتحررة حديثا ، باقتراحهم تقديم «المساعدة» للدول قيد التطور ، وبإنشائهم اتحادات موالية لهم ، الخ . لكن الاستعمار الجديد ليس بأفضل من القديم . والشعوب المتحررة تفهم ذلك تماما وتواصل مكافحة الاستعمار الجديد .

تقصد المادية الجدلية بالجديد كل ظاهرة تسجل تقدما . الجديد هو ما هو متقدم ، ما هو مرتبط ارتباطا حتميا بالتجديد، بالتطور الذي يتم من الادنى الى الاعلى .

ما العلاقات التي تقوم اذن بين الظاهرات القديمة والظاهرات الجديدة ؟ ينبغي ان ننوه باديء ذي بدء بأن الجديد لا يظهر بمنأى عن القديم وخارجا عنه ، وانما في قلبه وفي رحمه ؛ ففي القديم تتكون بذور الجديد او شروط ظهورها . وكلما نما الجديد وتطور ، دب الوهن في القديم وذهبت ريحه ، بينما يترعرع الجديد ويشتد ساعدا . ان الجديد هو على الدوام النفي الجدلي للقديم ، نتيجة صراع الاضداد . **والطابع الذي لا يقهر للجديد** هو قانون من قوانين التطور التاريخي . ويؤكد عصرنا ذلك توكيدا ساطعا ، لانه انما على أنقاض النظام الاستعماري القديم رأت النور دول فتية جديدة . وتلك قوة جديدة ، لا تقهر، في النضال ضد الامبريالية .

والآن ، وبعد ان درسنا قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية ، وقانون وحدة الاضداد وصراعها ، وقانون نفي النفي ، سنتصدى لتمحيص مقولات الجدل الماركسي .

٥ ـ مقولات الجدل الماركسي

ما مقولات الجدل الماركسي ؟

لا يستطيع بنو الانسان الاستغناء عن مدركات ومفاهيم عامة. فالفيزيائيون ، على سبيل المثال ، يدرسون خواص مختلف الاجسام ، كقابليتها للمحافظة على الحالة البدائية لركودها او لحركتها الاحادية الشكل . لكنهم لا يستطيعون الاقتصار على ذلك . فثمة سؤال يطرح نفسه عليهم لا محالة : لماذا تتجلى هذه الخواص في الاجسام كافة ، وما المشترك بينها ؟ هكذا صاغ الفيزيائيون ، بدراستهم خواص أجسام منفردة ، مفاهيم عامة مثل «العطالة» و«الكتلة» ، مقياس عطالة الاجسام . ولم يكتفوا بدراسة عطالة بعض الاجسام وكتلتها ، بل اعطوا تعريفا عاما لهاتين الخاصيتين . وعلى نحو مماثل ، تكوّن في الفيزياء المفهوم العام «الطاقة» .

لكن هل تكفينا هذه المقولات التي تقررها العلوم العينية ؟ انها لا تتجاوز ابدا إطار العلم الذي قام بتحديدها . والحال اننا نعلم انه توجد خواص عامة للاشياء والظاهرات ، والفلسفة هي التي تصوغ المفاهيم العامة ، المناظرة لهذه الخواص .

تنعكس أعم خواص الاشياء في المقولات الفلسفية نظير «المادة» و«الحركة» و«المكان» و«الزمان» و«النوعية» و«الكمية» و«التناقض» الخ . والمقولات الفلسفية هي اهم المفاهيم . وعليه، لا يمكن الاكتفاء بالمقولات التي تنشئها الفيزياء والكيمياء وسائر العلوم الخصوصية . وفي سيرورة المعرفة تتم صياغة مقولات فلسفية لكي تعكس أعم خواص الظاهرات . وسوف نتفحص فيما يلي مقولات العلة والمعلول ، الضرورة والاحتمال ، الضرورة والحرية ، المضمون والشكل .

ما مضمون مقولتي «العلة» و«المعلول» ؟

تقول لنا التجربة انه لا تظهر ظاهرة بدون علة ، «من تلقاء ذاتها» ، وانما تتولد اما عن تطورها السابق وإما عن ظاهرات اخرى . لا شيء ينبجس من العدم . لكل ظاهرة منبعها ، ما تتولد عنه ، وذلك ما يسمى ب «العلة» . **العلة** هي ما يحفز ، يخلق ، ينتج ، يولد ظاهرة اخرى . وما يظهر الى حيز الوجود بفعل العلة يسمى ب «المعلول» .

على سبيل المثال ، حين يأتي فلاحو تعاونية من التعاونيات بأسمدة لحقول الارز او القطن ، يرفعون مردود هاتين الزراعتين . الاسمدة اذن هي العلة ، وارتفاع المحصول هو المعلول .

تعكس اذن مقولتنا «العلة» و«المعلول» الفلسفيتان العلاقة بين ظاهرتين ، الاولى منهما ، وتسمى العلة ، تولد بالضرورة الاخرى ، وتسمى المعلول ، وهذه العلاقة تسمى العلاقة العلية .

ان العلاقة بين الاسمدة التي توضع في التربة وبين مردود الزراعات توجد وجودا مستقلا عن وعينا في الواقع بالذات ، في الطبيعة . ويتضح من هذا المثال ان كل علاقة علية تتولد فعلا وواقعا عن اشياء موجودة . **اهم سمة لعلاقة العلة بالمعلول هي اذن طابعها الموضوعي .**

ان المفكرين الذين يتمسكون بوجهة النظر القائلة انه يوجد في الطبيعة والمجتمع انشراط علي كوني للظاهرات ، مستقل عن الانسان ، يسمون **بالحتميين** . فهم يعتبرون ان جميع ظاهرات الطبيعة تظهر بفعل هذه العلة او تلك ، بموجب هذا القانون او ذاك . فكل ما يحدث في العالم ضروري لان كل شيء محدد سلفا ، او كما يقول الفلاسفة محتم .

ما ونى الحتميون على مر التاريخ يكافحون النفي المثالي للعلية **اللاحتمية** . ان المثاليين من شتى الميول والالوان ينطلقون

من المبدأ القائل ان الانسان يخلق العلية لـ «راحته» ، لكي يدخل النظام على «سديم ظاهرات الطبيعة» . هكذا حاول الفيلسوف بيركلي ، المثالي الموضوعي ، أن يدحض فكرة العلية بالذات . وقد سعى سائر المثاليين ، في الواقع ، الى الغرض نفسه ، بنفيهم الوجود الموضوعي للعلية .

كانوا يبنون أطروحتهم عن الطابع الذاتي للعلية على المحاكمات العقلية التالية . ان شمعة مشتعلة تحرقنا في كل مرة نلمس فيها شعلتها . لكن لا ينجم عن ذلك ، على ما يزعمون ، انها ستحرقنا بالحتم والضرورة في المرة التالية . فكذلك كانت الحال لألف مرة، لكن قد لا تكون كذلك للمرة الواحدة بعد الالف . لقد نجم الحرق حتى يومنا عن شمعة مشتعلة ، لكن هذا لا يعني البتة ان الاخيرة هي علة ذلك الحرق .

يقولون : ان هاتين الظاهرتين ــ الشمعة المشتعلة والحرق ــ ظاهرتان متضايفتان ، لكن تضايفهما هذا لا يعني وجود علاقة علية بينهما . ان هذه المحاكمات العقلية غير صحيحة ، وإليكم السبب . فنحن لا نصدر حكمنا على العلة بناء على ملاحظات لا غير . وانما ندرس العلية انطلاقا من التجربة ، من الممارسة التي تبين لنا على نحو لا مماراة فيه السبب الذي يجعل النار ، على سبيل المثال ، حارقة لنا لا محالة .

توجد في العالم كمية لامتناهية من الروابط العلية ، لكنها لا تلعب جميعا دورا متماثلا . فبينها ما هو اساسي . وهي بالتحديد التي يتوجب علينا ان نعرف كيف نميزها قبل غيرها .

كيف نفعل ذلك ؟

اننا نرى بأم أعيننا ان الذرة المزروعة لم تنبت ، فنبادر الى البحث عن علة ذلك . وبما ان الروابط والعلاقات بين الظاهرات عديدة ، فقد تكون عللها ايضا عديدة . بيد ان التحليل يبين لنا على الدوام ان هناك عللا رئيسية ، اساسية ، تحدد سائر العلل

الاخرى . وفي مثالنا الآنف الذكر يمكن ان تكون العلة الرئيسية نقصا في الحرارة ، زيادة في الرطوبة ، مواقيت غير مناسبة للبذار ، سوء نوعية الحبوب ، الخ .

انه لمن الاهمية بمكان وضع اليد على العلة الرئيسية ، لانها هي التي ستتيح لنا ان نمارس تأثيرا حاسما على المعلول . بيد ان ما قلناه لا يعني البتة انه من المباح لنا ان نهمل العلل الثانوية. فهذه العلل لا بد من تمييزها بدورها، واذا كانت تربكنا وتزعجنا، فمن الواجب ان نسعى الى ازالتها .

ما دامت العلة تولّد المعلول ، فبينهما اذن صلة ما . ويتصور الميتافيزيقيون هذه الصلة على نحو أحادي الجانب ، فلا يرون فيها سوى فعل العلة في المعلول . لكن الا يفعل المعلول في العلة ؟ ان الميتافيزيقيين لا يستطيعون الاجابة على نحو صحيح على هذا السؤال ، لانهم يفصلون الضدين المتمثلين في العلة والمعلول واحدهما عن الآخر . وهم يحاكمون الامور على النحو التالي : ان ظاهرة من الظاهرات يمكن ان تكون علة او معلولا . واذا تجلت في شكل علة ، فلا سبيل الى ان تكون بعد ذلك معلولا .

والحال ان ذلك غير صحيح . فبين العلة والمعلول تأثير متبادل . فيمَ يكمن ؟ سوف نبين ذلك من خلال مثال . ان المادة والكينونة تولدان الوعي ، لكن الوعي يمارس بدوره تأثيرا على الكينونة ويفعل فيها . ويتبين من ذلك بجلاء تام تفاعل العلة والمعلول ، تأثيرهما المتبادل .

هل يعني ذلك ان العلة والمعلول يشرط كل منهما الآخر بقدر متساوٍ ؟ كلا بالطبع ، لان العلة في علاقتها بالمعلول هي التي تلعب الدور الفاصل . انها هي التي تحدد العلاقة المعطاة ؛ أما المعلول فانه يلعب ــ يجب ان يكون ذلك مفهوما لدينا ــ دورا هاما ، لكن ثانويا . وليس امرا عديم الاهمية ان نعرف ما الظاهرة التي ينبغي اعتبارها علة ، وما تلك التي ينبغي اعتبارها معلولا . تماما كما انه ليس امرا عديم الاهمية بالنسبة الى العلم

معرفة هل المادة هـي التي تولد الوعي ام العكس . بيد ان ذلك لا يعني انه في الامكان التغاضي عن التأثير الذي يمارسه المعلول على العلة وإسقاطه من الحساب .

ان لمفهوم التفاعل او الفعل المتبادل معنى آخـر ايضا . وبوسعنا تفسيره من خلال المثال التالي . فالمحراث الحديـدي يفلح التربة خيرا مما يفلحها المحراث الخشبي ، والتربة الاحسن فلاحة تدر على الفلاحين المزيد من المحاصيل ، الخ . ويترتب على ذلك ان الحقل الجيد الفلاحة يلعب هنا دور المعلول بالنسبة الى المحراث الحديدي ، ولكنه يلعب ايضا دور العلة بالنسبة الى المحصول الوفير ؛ وهذا الاخير يشكل بدوره علة ازدهار الشعب. والحق انه تواجهنا هنا سلسلة حقيقية من العلاقات العلية .

اذا أمعنا النظر في هذا التسلسل ، اتضح لنا انه يتألف من ظاهرات مترابطة . ومن الواجب أن ننظر الى كل علة والى كل معلول لا على حدة ، وانما بالترابط مع سائر الظاهرات التي تولدا عنها والتي تولدت عنهما . وفي هذه الحال تقوم ظاهرة بعينها مقام العلة والمعلول في آن واحد . فهي علة بالنسبة الى الظاهرة التي تولدت عنها ، ولكنها معلول بالنسبة الى الظاهرة التـي ولدتها. ومن وجهة النظر هذه لا يعود المعلول والعلة يؤلفان قطبين منعزلين ، متعارضين ، وانما هما حلقتان في سلسلة معقدة من الوقائع والظاهرات التي يفعل بعضها في بعضها الآخر . وعليه ، وعلى حد تعبير انجلز ، **يوجد في العالم تفاعل عام يكمن في واقع ان العلة والمعلول يبدلان مواقعهما باستمرار ؛ فما يكون في بعض الشروط المكانية والزمانية علة يضحي في شروط اخرى معلولا ، وبالعكس .**

ان المذهب المادي الجدلي عن العلية لذو اهمية كبيرة فـي تفنيد جميع ضروب الخرافات .

فكثيرا ما يقيم المتطيرون والمؤمنون بالخرافات من الناس علاقة

علية بين ظاهرتين اثنتين ، بالاستناد الى علائم خارجية صرف ، لمجرد انهما متعاقبتان في الزمن ، مع ان هذا التجاور عرضي تماما .

حين يتوصل الانسان ، بتجاوزه ظواهر الامور ، الى العلل الفعلية للظاهرات ، لا يعود يخشاها ، ولا يعود متطيرا . اليكم مثالا . مر زمن كان فيه المسافرون الذين يجتازون افريقيا يؤكدون انهم رأوا «في السماء» حدائق الفردوس الشاسعة . وكانوا يروون احيانا انهم شاهدوا مركبا طائرا يعتلي ظهره بحارة أشباح . ثم كان كل شيء يختفي . ماذا كانت حقيقة الامر ؟ لقد كان الناس ، ما دامت علته مجهولة ، يبنون حوله الخرافات . لكن في زمن لاحق فسر العلماء علة تلك الظاهرات الخارقة للمألوف : ففي البلدان الحارة ، وفي ايام الصحو ، يغدو الهواء اكثر كثافة ، فيؤلف مرآة هائلة الحجم ، وتنعكس على هذه «المرآة» الاشياء الموجودة على البر او في البحر ، من حدائق ومراكب الخ . كان الناس يرون اذن انعكاس حدائق حقيقية موجودة على الارض ، وليس جنات الفردوس ؛ كما كانوا يرون انعكاس مراكب تمخر العباب وليس مراكب طائرة . وقد كفى ان توضع اليد على علة هذه الظاهرة حتى انقشع الخوف المتطير الذي كان يعتري الناس امامها .

معرفة العلل تحررنا اذن من الخرافات .

وتساعدنا دراسة العلل ايضا على فهم واحدة من اغرب ظاهرات الطبيعة ، ونعني بها ما نلاحظه فيها من **نظام** .

حسبنا ان نلقي نظرة خاطفة على العالم المحيط حتى نكتشف مدى تناغمه و«انضباطه» . ويتجلى تناغم الطبيعة هذا ، على سبيل المثال ، في تكيف الحيوانات والنباتات مع شروط وجودها ، مع الوسط المحيط .

يؤكد الفلاسفة المثاليون، العاجزون عن تفسير ظاهرتي الذكاء والنظام اللتين تلاحظان عند كل خطوة في الطبيعة ، ان ظهور

الاشياء جميعا وتطورها يتحددان بغايتها ، بالهدف الذي وجدت من اجله ، وليس بعلل مادية ، بقوانين الطبيعة بالذات . هكذا نراهم يتحدثون عن «الغائية» .

وهذا المذهب يسمى الهدفية Téléologie (من اللفظة اليونانية Télos ، وتعني الهدف) .

وقد لحظ انجلز ، في معرض هزئه بتلك المحاكمات ، ان القطط خلقت ، بموجب التصور الهدفي للعالم ، كي تأكل الفئران ، والفئران خلقت كي تأكلها القطط ، والطبيعة بأسرها وجدت كي تبرهن على حكمة خالقها .

وما يزال المثاليون ، حتى يومنا هذا ، يحاولون ان يشدوا الهدفية الى جانبهم .

لكن هل للهدفية من قيمة علمية ؟ لنتفحص الامر .

ينبغي ان نتذكر بادىء ذي بدء اننا مهما صدعنا رأسنا بصدد مسألة معرفة ما الغاية ، ما الهدف الذي ظهرت من اجله هذه الظاهرة او تلك ، فلن نسلط اي ضوء على طبيعتها . فلكي نفهم ظاهرة من الظاهرات ينبغي ان نعرف العلل التي ولدتها ، والظاهرات التي ترتبط بها . وانما بعد تساؤلنا عن علة هذا التنظيم المدهش للطبيعة ، عن سببه ، يصير في وسعنا ان نفهم ماهية الظاهرات التي تحدث فيها ، ووجهة النظر الهدفية موجهة ضد هذا التفسير العلمي ، العلي ، لظاهرات الطبيعة .

هاكم مثالا يقطع كل شك . قبل العاصفة تسعى الاسماك الى الابتعاد عن المنطقة الساحلية بقدر الامكان كيلا ترمي بها العاصفة عند هبوبها على الشاطىء . وتختفي الهلاميات البحرية هي ايضا . وفي المستطاع وصف مثل هذا السلوك بأنه «ذكي» .

حين نحلل سلوك هذه الحيوانات يصعب علينا ان نتخلص من الفكرة التي توحي الينا بأننا نواجه هنا شيئا «عجائبيا» . لكن حين يكشف العلم العلل الحقيقية ، يصبح كل شيء واضحا .

وقد بيّن العلم انه حين تهب عاصفة بعيدا عن الشاطىء ، تصل اليه موجات صوتية لا تدركها الاذن البشرية . وتنتشر هذه الموجات على مدى آلاف الكيلومترات . ولهذا اذا ما هبت عاصفة بعيدا عن الشاطىء ، سبقتها نذرها اليه بمدة طويلة . وحيوانات البحر تسمع هذه الاصوات ، وذلك بخلاف الانسان . ولهذا «تستشعر» العاصفة وتنسحب الى مكان أكثر أمانا . و«سلوكها الذكي» يقوم هنا على اسباب واقعية ، طبيعية . وليس في الامر هنا شيء خارق للطبيعة . هكذا نرى ان العلم هو وحدة المؤهل لتفسير النظام الملحوظ في الطبيعة .

كيف نفسر النظام الذي نلحظه في الطبيعة الحية ؟ لقد بيّن داروين ان لهذه «الغائية» عللها : فالكائنات الاكثر كمالا ، الكائنات المتكيفة على احسن وجه مع شروط الوسط ، يكتب لها لا محالة البقاء على قيد الحياة في صراعها من اجل تكيف افضل مع شروط الحياة ، او بتعبير آخر في كفاحها من اجل الوجود . وذلك «الذكاء» الذي يدهشنا كثيرا في عالم الاحياء هو نتيجة ارتقاء طويل الامد ، نتيجة عمل قوانين الطبيعة .

والآن ، وبعد ان درسنا مقولتي العلة والمعلول وأهميتهما ، يجب ان نلحظ أن العلل قابلة للتباين : فبعضها يولّد ظاهرات لازمة ، وبعضها الآخر يولّد ظاهرات محتملة .

اللزوم والاحتمال

ذات يوم اخذ العالم الفرنسي انطوان بيكيريل (١٨٢٥ ـ ١٩٠٨) من عند الفيزيائي الشهير بيير كوري (١٨٥٩ ـ ١٩٠٦) كمية ضئيلة من الراديوم ليقوم بتجربة عليها امام تلامذته في محاضرة له . ووضع انبوب الراديوم في جيب سترته . وبعد بضعة ايام لاحظ بيكيريل على جلده ، في الموضع الذي كان فيه

جيب سترته ، احمرارا يذكر شكله بشكل الانبوب الذي كان يحتوي على الراديوم . وكان هذا الحادث العارض حافزا على البدء بدراسة التأثير الذي تمارسه اشعاعات الراديوم على العضوية البشرية . هل ينبغي ان نستنتج من ذلك انه لولا الحادث العارض المشار اليه ما كان الناس ليعرفوا شيئا عن سرطان الدم ، عن الخطر المميت الذي ينطوي عليه الراديوم ؟

ثمة جوابان على هذا السؤال . بعضهم يقول ان كل شيء في العالم لازم وانه لا وجود للاحتمال . ويؤكد آخرون على العكس ان كل شيء محتمل .

من المصيب ؟

الطرفان يجانبان الصواب ، لانهما يفصلان الاحتمال واللزوم واحدهما عن الآخر . فعلى سبيل المثال ، علامَ يقوم يقيننا بأن الشمس ستشرق ، وبأن النهار سيعقب الليل ؟ على الممارسة ، على تجربة طويلة ، على معرفة قوانين الطبيعة . فتعاقب النهار والليل يتولد عن دوران الارض حول محورها ، وتعاقب الفصول يتولد عن دوران الارض حول الشمس .

ان مقولة اللزوم الفلسفية تفيدنا على وجه التحديد في تعيين الترابط المتواصل بين الظاهرات . **فليس اللزوم ما يمكن ان يكون او الا يكون ، وانما ما يجب ان يكون بالحتم والضرورة، ما يتولد عن علل عميقة ، وما ينبع بالتالي من طبيعة الظاهرات بالذات .**

هل للمصادفة من وجود ؟ لنأخذ مثالا . وقع انسان ضحية حادث سيارة . مصادفة بليدة وضعت نهاية لحياته . لماذا نقول عن هذه الظاهرات انها محتملة ؟

الحادث المحتمل يمكن ان يحدث ويمكن ألا يحدث . هل كانت حياة هذا الانسان ستقوده بالضرورة الى ذلك الحادث الذي لاقى فيه حتفه ؟ كلا . لا نستطيع ان نصف أشباه هذه الاحداث

بأنها لازمة . وانما هي مصادفة . وما كان التطور الداخلي للظاهرات ليقود البتة الى ما حدث .

حين فتح بلد السوفييتات لاول مرة في تشرين الاول ١٩٥٧ طريق الفضاء بإطلاقه قمرا صناعيا من نوع سبوتنيك ، أكد بعض محترفي الدعاية البورجوازيين ان ذلك الحدث حدث منعزل وعارض . فهل هذا صحيح ؟ كلا . فذلك النجاح يفرس جذوره في النظام الاشتراكي بالذات ، في العناية التي يحاط بها في بلد الاشتراكية تطور العلم والتقنية .

يشهد اطلاق السبوتنيك على نضج التقنية السوفياتية ، على المنجزات الهامة للعلم السوفياتي في فروع حاسمة كالرياضيات والفيزياء والكيمياء والعدانة ، يشهد على الطابع التقدمي للتعليم العام في الاتحاد السوفياتي . فكيف يمكن الكلام والحالة هذه عن مصادفة ؟ يقال عن حدث ما انه وقع بالمصادفة اذا كان لا ينجم عن طبيعة سيرورة معينة . والحال ان السبوتنيك قد أعد له العدة تاريخ الاتحاد السوفياتي بأسره .

وعليه ، للاجابة على السؤال المتعلق بمعرفة هل هذه الظاهرة او تلك محتملة او لازمة ، لا بد ان نتبين هل نجمت الظاهرة المذكورة عن علل داخلية او خارجية . فاذا ما أنزل إعصار الاذى ببستان مزروع ، فهل يكون ذلك من قبيل الاحتمال او اللزوم ؟ بديهي ان للاعصار علله . لكن هل كان من المحتم ان يلحق الاذى بالبستان ؟ كلا ، وإليكم السبب . فالاعصار لا يمكن ان يهب بدون علل . لكن هذه العلل خارجية وعابرة بالنسبة الى البستان ، ولا تنجم عن المبادىء الاساسية لنموه وتطوره . ولهذا فان الحدث ذاته محتمل . ولم يكن تلف البستان امرا محتوما . وتأثير الاعصار في ذلك البستان دون غيره احتمال ، وان كانت أشباه هذه الحالات يتكرر وقوعها .

واضح اذن ان الاحتمال واللزوم ضدان . ولكن هل يمكن ان

نستنتج من ذلك ان الاحتمال والضرورة لا تجمع بينهما صلة مشتركة ؟

• يحاكم الميتافيزيقيون الامور على النحو التالي تقريبا : اللازم لا يمكن ان يكون محتملا ، والمحتمل لا يمكن ان يكون لازما . فهل الامور كذلك حقا ؟ ان في الحياة ، في الواقع ، نقاط تماس عديدة بين الاحتمال واللزوم ، لترابطهما الوثيق فيما بينهما . وليس من سبيل الى فصل واحدهما عن الآخر . وخلف واجهة الاحتمال ، ينبغي ان نعرف كيف نكتشف على الدوام اللزوم والقوانين التي ينشأ عنها .

يترتب على ذلك انه لا وجود لا في الطبيعة ولا في المجتمع لظاهرات لازمة «فقط» او محتملة «فقط» . فاللزوم يتجلى على الدوام في شكل الاحتمال . وليس ثمة أثر من الاحتمال في كون شجرة المنجة تنمو في الاقطار الدافئة . ولكن كثرة عدد أوراقها وكون كل ورقة ذات طول معين وشكل معين مرهونان بجملة من الظاهرات المحتملة ، بما في ذلك كمية قطرات المطر التي روت الشجرة ، والرياح التي عانت من فعلها ، الخ . المحتمل واللازم متشابكان اذن ومتداخلان .

يرى الميتافيزيقيون ان للظاهرة اللازمة علتها ، بينما ليس للظاهرة المحتملة علة . ولكن لا يمكن لاي ظاهرة ان تظهر بدون علة . ولكل ظاهرة محتملة علة ايضا . فيمَ يكمن اذن الفرق ؟

يكمن في ما يلي . فالعلة تتجلى على انها شيء داخلي في الظاهرة اللازمة ، وخارجي في الظاهرة المحتملة .

وعليه ، فان نقص الاغذية الملاحظ في الاقطار المتخلفة مشروط بالمردود الاقتصادي الضعيف الموروث عن الماضي الاستعماري . وهذه علة داخلية لنقص الاغذية في تلك الاقطار . لكن كمية الاغذية يمكن ان يطرأ عليها المزيد من التقلص تحت تأثير علل خارجية ، علل من أشباه الفيضان او الثوران البركاني او الاعصار ، الخ .

وعليه ، اذا كان التصور الجدلي عن الاحتمال يؤكد ان لكل شيء علة فانه يحرص على التمييز بين العلل المحتملة ، التي كان من الممكن ألا تكون ، وبين العلل اللازمة التي ترتبط بالميول العميقة لتطور الظاهرات . ولهذا فان العلية لا تعني اللزوم ، مهما تنوعت مزاعم الميتافيزيقيين . والمادية الجدلية ، اذ تؤكد ان لكل شيء علة ، تعترف ايضا بالاحتمال . ويركز العلم اهتمامه على دراسة اللزوم ، على قوانين الظاهرات التي هي قيد تطور ، لان العلم مدعو اساسا الى الكشف عن ميل هذا التطور واتجاهه .

لقد وجه العالم السوفياتي الشهير متشورين (١٨٥٥ ــ ١٩٣٥) لاذع النقد الى العلماء الذين يجعلون معوّلهم على الاحتمال ، لا على دراسة قوانين تطور الطبيعة . كان يقول : اننا لا نستطيع انتظار نِعَم الطبيعة ، وانما مهمة العلم ان ينتزعها منها انتزاعا .

يعلم كل جيولوجي ان العلماء ما كان يمكنهم ان يتوصلوا الى الاكتشافات الكثيرة التي اكتشفوها لو انهم اهتدوا بهدي المصادفة . فللقيام بتنقيب جيولوجي سليم ومثمر ، لا بد من دراسة القوانين التي تتحكم في بنية القشرة الارضية واستلهامها في الممارسة العملية . وفي هذه الحال لا يعود المنقب رهين «الحظ» ، بل تكلل أبحاثه بالنجاح لا محالة .

اذا كانت الظاهرات المحتملة قابلة لان تكون او لان لا تكون ، فهل في وسعنا دراستها ؟ وما القوانين التي تخضع لها ؟ حتى نجيب على هذه الاسئلة ، لنقم اولا بتجربة صغيرة . لنرمِ في الهواء قطعة من النقود . انها ستعاود السقوط اما من جانب الطرة وإما من جانب النقش .

ولا يسعنا ان نعرف سلفا الجانب الذي ستقع عليه قطعة النقود . ولكن لو رمينا بها ٥٠٠٠ مرة على سبيل المثال ، للاحظنا انها تسقط ٢٥٠٠ مرة تقريبا على جانب الطرة و٢٥٠٠ مرة على

جانب النقش . ثمة اذن نظام معين يجد تعبيره في نظرية الاحتمالات .

لنأخذ مثلا آخر ، من سيولد في أسرة بعينها ؟ أذكر أم انثى؟ من النظرة الاولى ، لا يخضع هذا الحدث لاي قانون . ففي بعض الاسر يمكن ان يولد صبيان فقط ، وفي أسر غيرها بنات فقط . لكن الملاحظات التي أجريت على عدد كبير من الاسر قد تمخضت عن اكتشاف تواتر معين : فولادة الصبيان والبنات تخضع للنسبة التالية : فمقابل كل ١٠٠ بنت يولد ١٠٥ صبيان .

ماذا تعني هذه الوقائع؟ ان القوانين التيتتحكم في الظاهرات المحتملة تبقى عصية على الادراك ما دام عدد الحالات المرصودة صغيرا ، لكن النقاب يزاح عنها متى رُصد عدد كافٍ من الوقائع، وذلك ما يسمى بقانون الاعداد الكبيرة .

نحن قادرون اذن على دراسة الظاهرات المحتملة وعلى اكتشاف القانون الناظم لوجودها . وقد اكتشفت الفيزياء الحديثة ، التي تدرس حركة الكهارب وجزيئات المادة الاخرى ، ان حركة الجزيئات تخضع لقوانين لها طابع احصائي .

العلم الحديث ، كما نرى ، يدرس لا الظاهرات اللازمة فحسب ، بل ايضا الظاهرات المحتملة . ولدراسة الظاهرات الاخيرة اهمية عملية ايضا .

ان العديد من الاحتمالات موائمة للانسان ، بيد انه ثمة احتمالات اخرى لا تعود عليه الا بالكوارث والآلام : ومن قبيل ذلك الرياح التي تهب من الصحارى ، والجفاف ، والفيضانات ، والآفات الاخرى . ويسعى العلم ، بالاستناد الى دراسة لزوم القوانين ، الى الحد من فعل هذه الآفات . كيف يمكن اذن الحد من فعل ما ليس منوطا بارادة الانسان ؟ الحق انه لا يمكن ، على الدوام ، تلافي الاحتمالات ، ولكن من الممكن ومن الواجب اتقاء شر آثارها . لا سبيل في الوقت الحاضر ، على سبيل المثال ، لتلافي الاحتمالات المرتبطة بنزوات الطقس التي قد تؤدي الى تلف

المحاصيل ، وحتى الى بوار البذور . ولكن من الممكن الحد من آثارها الضارة عن طريق التأثير على الشروط التي تتجلى فيها. لهذا ينبغي خلق شروط يتقلص فيها الى أدنى حد ممكن أثـــر الاحتمالات الضار او ينعدم تماما .

ان ما قلناه ينطوي على اهمية خاصة بالنسبة الى الزراعـة التي يرتهن امرها اكثر من الصناعة بكثير بتقلبات الطقس . فري الحقول واستخدام الاسمدة وتطبيق التقنيات المختلفة تحمـــي الزراعة من الاحتمالات غير المرغوبة .

ليس الانسان اذن بعاجز امام «المصادفة» ، انما هو يملك القدرة على شل آثارها الضارة او تقليصها الى ادنى حد .

وترتبط مشكلة الحرية وثيق الارتباط بمقولـــة اللزوم او الضرورة .

الضرورة والحرية

يبين لنا التاريخ ان انتصار الاشتراكية على الرأسماليـــة ضرورة تاريخية . والتعايش السلمي بين النظام الاشتراكـــي والنظام الرأسمالي ضروري تاريخيا .

فهل من داعٍ ، والحالة هذه ، لبذل الجهود وتجشم المشاق للاخذ بناصر ما لا مناص من حدوثه بحكم الضرورة التاريخيـة الطبيعية ؟

لقد تواجه الجبريون والارادويون (١) قرونا وقرونا بصـدد هذه النقطة .

---

١ ـ القدريون بلغة قدامى الفلاسفة وعلماء الكلام العرب . «م»

يعزو الاراذويون الى الارادة البشرية الدور الحاسم في تطور العالم (من هنا جاءت تسمية «الارادوية») . ولا يقيمون اعتبارا للشروط الموضوعية ، للقوانين ، للضرورة التاريخية . يفهمـون الحرية غيابا لكل «إكراه» . والحال ان هذا التصور مغلوط . فلا شيء في العالم يظهر ويفعل فعله بلا علة . لهذا لا يسع الارادة البشرية هي الاخرى ألا تكون مرتهنة بأي شيء ، وأن تفعل مـا تشاء كما يحلو لها .

وتصور الجبريين معاكس تماما . فهم يؤمنون بقدر محتوم، ويقوم ايمانهم على التصور الذي يقول ان كل ما في العالم مقدر سلفا وان الانسان عاجز عن ان يغير فيه شيئا .

تقضي آراء الجبريين على البشر بعدم الفاعلية . ولو اخذنا بتصورات الجبريين بحرفيتها ، لما فعلنا شيئا سوى تكتيـف أذرعنا . هذا المذهب يجرد اذن الشغيلة من ايمانهم بقواهم ، من ايمانهم بقدرتهم على الاطاحة بالانظمة الرجعية التي تستغلهم .

نستطيع ان نتبين من خلال المثال التالي مدى ضرر الجبرية. ففي الغرب يحاول بعضهم ان «يثبت الضرورة المحتومة» للحروب ولسباق التسلح . الانسان في رأي هؤلاء عاجز حيال الحرب ، مع ان سياسة الكفاح في سبيل صيانة السلام ، وهي السياسة التي تنتهجها الاقطار الاشتراكية والدول المستقلة الفتية ، قادرة على اتقاء شر حرب عالمية جديدة .

كلا المذهبين ـ الارادوية والجبرية ـ خاطىء اذن. أنصارهما يتصدون لحل المشكلة تصديا ميتافيزيقيا ، فبعضهم لا يعترف بغير الحرية ، وبعضهم الآخر لا يعترف بغير الضرورة . فإما ان كل شيء يتم بارادة الانسان ، وعندئذ لا يمكن ان يكون هنـاك مجال للضرورة ؛ وإما ان كل شيء يتم بقوة الضرورة والقانون ، وعندئذ لا يمكن ان يكون هناك مكان للحرية . الحرية تتنافـى والضرورة . هذه هي نقطة انطلاق تلك المحاكمات .

ما الحل الصحيح اذن ؟ غالبا ما يقصد بـ «الحرية» فـي

الحياة اليومية انعدام كل قسر وكل اكراه وكل نهي . لهذا ، كثيرا ما يسود الاعتقاد بأن القانون والضرورة ينفيان الحرية : فما دام هناك قانون وضرورة ، فهناك ايضا «اكراهات» و«قيود» . اذن فلا مجال للحرية . هكذا نجد ان حل مشكلة الحرية يعني الاجابة على السؤال المتعلق بمعرفة هل في وسع المرء ان يكون حرا مع انصياعه في الوقت نفسه لقوانين الضرورة الطبيعية .

لنبدأ بمثال . للرحيل عبر الفضاء ، لا بد من قهر الجاذبية الكونية التي «تشد» الانسان الى الارض . لكن هل يعني ذلك ان القانون الذي يعبر عن تلك الجاذبية قد ثبت بطلانه ؟ بديهي أن لا .

حتى تأخذ المركبة الفضائية مكانها في مدارها ، فلا بد ان تزداد سرعتها الى حد تفوق معه قوتها المركسة قوة الجاذبية الارضية (وهذا لا يكون الا بسرعة تزيد عن ثمانية كيلومترات في الثانية الواحدة) . وقد أفلح العلماء في اطلاق سفينة الى الفضاء لا رغم أنف قانون الجاذبية الكونية ، وانما بعد ان درسوا تأثيرها دراسة معمقة .

حين أطلق العلماء السوفييت صاروخا باتجاه القمر، اعتمدوا بالطبع على قانون الجاذبية الكونية . وقد زودوا الصاروخ بسرعة محددة اتاحت له الافلات من نطاق الجاذبية الارضية . ثم أرغمت بعد ذلك قوة الجاذبية القمرية الصاروخ على الاتجاه صوب القمر . ويبين هذا المثال على نحو قاطع مدى خطأ من يرتئي اننا نفقد حريتنا بخضوعنا للقوانين ، ومدى خطأ من يبحث عن الوسائل للاحتيال على هذه القوانين وللالتفاف حول تلك «الضرورة التي تقيد الحرية» . ان أشباه هؤلاء الناس يفهمون الحرية على انها مستقلة عن القوانين . والحال ان هذا خطأ .

اين تتجلى اذن الحرية الحقيقية ؟ هل تتجلى حيث « لا اعتراف» بأي قانون ، ام حيث تدرس تلك القوانين ويستفاد من

خدماتها ؟ الجواب واضح : في الحالة الثانية . لقد عبر لينين عن هذه الفكرة على النحو التالي : الضرورة عمياء ما دامت غير معروفة . لكن اذا عرفت الضرورة ، اذا عرف القانون ، اذا اخضعنا عمله لمصالحنا ، صرنا سادة الطبيعة . كتب انجلز في مؤلفه «ضد دهرينغ» : «لا تكمن الحرية في استقلال مرام عن قوانين الطبيعة ، وانما في معرفة هذه القوانين وفي الامكانية التي تتيحها هذه المعرفة لوضع هذه القوانين موضع تطبيق منهجي لاغراض محددة» .

وما تقدم ينطبق سواء بسواء على ظاهرات الطبيعة وعلى ظاهرات الحياة الاجتماعية . قبل ظهور الماركسية ، لم تكن قوانين التطور الاجتماعي بمعروفة . وكان الناس عبيد الضرورة التاريخية . وقد اماطت الماركسية اللثام عن تلك القوانين وبدأت تتعرفها . وكانت تلك هي الخطوة الاولى : فبعد ان تسلح الشغيلة بتلك القوانين صاروا المبدعين الاحرار لمصيرهم وشادوا حياتهم على نحو جديد ، طبقا للضرورة التاريخية . ان الحرية تمر عبر الضرورة .

يرتئي الفلاسفة البورجوازيون المعاصرون ان الانسان حر حين يستطيع ان يتخذ قرارا اعتباطيا ، من دون ان يقيم اعتبارا لاي شيء .

والحال انه لا وجود لحرية من هذا النوع . والتمثيل على ذلك نلفاه في الحكاية الخرافية عن المساجلة التي نشبت بين دوارة الهواء وابرة البوصلة الممغنطة . فقد طفقت دوارة الهواء تتباهى بالقول :

ــ انني حرة ، انني أدور في كل اتجاه حسبما يحلو لي ، اليوم الى اليمين ، وغدا الى اليسار ؛ أما انت فكيفما اداروك عدت لتشيري على الدوام الى الاتجاه ذاته .

فردت الابرة الممغنطة :

ــ ما أبدعها من حرية تلك التي تدعين ! انك لا تدورين الى اليمين

او الى اليسار بملء ارادتك . انما الرياح هي التي تقودك قسرا. ولذلك تدورين . حريتك قصيرة ، قصيرة للغاية ، من ريح الى ريح . حتى النسيم العليل يترك أثره فيك ، في حين ان امري انا ليس رهين تقلبات الطقس ، بل أحافظ بصلابة على اتجاهي. وهذا ما يتيح لي ، حين يريدون استشارتي ، أن اجد على الدوام سواء السبيل .

اذا تمعنا في مغزى هذه الحكاية ، لم يصعب علينا الاقتناع بأنه لا يجوز ان نتصور الحرية على انها فعل اتخاذ القرار دونما اعتبار لاي شيء .

يعتقد بعض الناس في البلدان الرأسمالية ان طريقتهم في التفكير ورغباتهم وعاداتهم هي نتيجة اختيارهم الحر . ولكنهم في الواقع عبيد الشروط التي فيها يحيون ، عبيد الغرائز الفردية النزعة التي غرسها فيهم طراز حياتهم . وليس في ما يفعلون أثر من «اختيار حر» بالمعنى الذي يذهب اليه العلماء البورجوازيون. فكل شيء هناك رهين الضرورة . وفي ظل الرأسمالية تتجلى هذه الضرورة في شكل قوى اجتماعية عمياء يمكن تشبيهها بريـــاح عاصفة .

ويختلف تماما امر الحرية التي تستند الى معرفة الضرورة في ظل شروط الاشتراكية . فهنا لا تعود القوانين تظهر بمظهر قوى اجتماعية عمياء . ويرتكز نشاط الناس الى معرفة معمقة بقوانين التطور الاجتماعي .

يؤكد اعداء الماركسية انه ما دامت هذه الاخيرة ترى في تطور العالم نتيجة عمل قوانين موضوعية لا تتعلق لا بارادة الناس ولا بوعيهم ، فانها تفضي بالضرورة الى الجبرية ، الى نفي نشـاط الناس الحر . ويقصدون بذلك ان الماركسيين يتصورون تطـور العالم على انه سيرورة مسبقة التحديد . ولكن ما دام الماركسيون يتكلمون مع ذلك عن نشاط انساني حر ، فانهم يوقعون انفسهم،

على حد ما يزعم اعداؤهم ، في تناقض مع مذهبهم بالذات .

يقول نقاد الماركسية : اذا كان مجيء الاشتراكية محتوما ، فما جدوى النضال في سبيلها ؟ كل ما هنالك انه ينبغي انتظار مجيئها ، لا اكثر . ما الداعي الى تنظيم احزاب ؟ الى تمهيد السبيل امام الاشتراكية ؟ ويضيفون قائلين : لا يقوم الانسان بتأليف احزاب كي يحقق كسوفا شمسيا !

ان الماركسية ــ اللينينية لا تمت بصلة من قريب او بعيد الى مثل هذا التصور المبتذل . فهي تقر بضرورة انتصار الاشتراكية، لكنها لا تعني بذلك ان الاشتراكية آتية بصورة آلية.

تتميز ضرورة الظاهرات الطبيعية تميزا جوهريا عن ضرورة الظاهرات الاجتماعية . وتتحقق الضرورة في التطور الاجتماعي على نحو مغاير للكيفية التي يتحقق بها تعاقب النهار والليل او مجيء الربيع والصيف . فالظاهرات الاخيرة تتم بدون مساهمة الانسان .

وبالمقابل نرى ان كل شيء في المجتمعهو من صنع الانسان ، من صنع نشاطه المنتج ، الثوري . لكن هل يعني ذلك ان الضرورة الاجتماعية ، ان قوانين التطور الاجتماعي يبتدعها بنو الانسان ؟

كلا . فالضرورة الاجتماعية لا تقل موضوعية عن الضرورة في الطبيعة . لكنها تتميز عنها ، كما رأينا ، تميزا جوهريا . الضرورة في الطبيعة لا تفترض نشاط البشر . أما في الحياة الاجتماعية فان نشاط البشر هو من ضمن الشروط التي بدونها لا تتحقق الضرورة ، لا تتجلى .

هل من الممكن ، على سبيل المثال ، تلافي الحرب بدون نضال نشيط تخوضه الجماهير الشعبية الواسعة ؟ كلا . اذا بقيت قوى السلام ساكنة بلا حراك ، نشطت حتما قوى الحرب . وتعرض للخطر التعايش السلمي . وعليه فان توطيد السلم او اندلاع حرب عالمية جديدة مرهونان بالشعوب نفسها ، بتصميمها وحزمها ، بأفعالها النشيطة .

ان توكيد حتمية الحرب يعني تقليص نشاط الشعوب في كفاحها ضد هذه الآفة ، وتثبيط معنويات قوى السلم . وبالعكس : فالاقتناع بأن المنازعات ليست محتومة يساهم في زيادة عدد انصار السلم ويجرهم الى معترك النضال .

الضرورة التاريخية لا تنفي اذن دور البشر في تطور الاحداث، بل تستدعيه وتفترضه . وتعلق الماركسية اهمية خاصة على نشاط البشر الحر . وهذا النشاط يسمى ايضا بالعامل الذاتي، اي القوة التي يرتهن امرها بالفعَلة ، بالناس ، بمعارفهم ، بجهودهم ، ببراعتهم .

يتصاعد دور العامل الذاتي ، دور نشاط البشر الحر ، تصاعدا مرموقا في مرحلة بناء الاشتراكية . بيد ان هذا النشاط عينه يرتكز الى شروط موضوعية وينجم عنها . ويتعرض معنى الحرية للتحريف والتشويه على أيدي الفلاسفة وعلماء الإجتماع البورجوازيين الذين يختزلونها الى «حرية الفكر المثالية» . يقولون : «يمكنك ان تكون عبدا راسفا في الاغلال ، وحرا بالفكر » .

الناس جميعا أحرار في المجتمع البورجوازي ، في رأيهم . فلا احد يرغم العامل على العمل ، ولا احد يرغم الرأسمالي على تقديم العمل له . ففي وسع العامل ان يذهب للعمل لدى الرأسمالي ، وفي وسعه ألا يذهب . الامر امره ، بل ان ايديولوجيي الامبريالية اخترعوا لاقطار الرأسمالية مصطلحا خاصا : «العالم الحر» . لكن لنرَ هل العالم المزعوم «حرا» هو كذلك فعلا ؟

حتى يكون الانسان حرا ، لا بد ان يكون سيد شروط الحياة الاجتماعية . فهل في وسعه ان يكون سيدها في ظل المجتمع الرأسمالي القائم على الاستغلال والاضطهاد ؟

يبين لنا التاريخ انه لا وجود للحرية في مجتمع يوجد فيه

استغلال الانسان للانسان والاضطهاد القومي والاستعماري . الحرية في مجتمع كذلك وهم ، خداع للشعب . ولا وجود للحرية بالنسبة الى الشغيلة حيثما تسود الملكية الخاصة لوسائل الانتاج ولازمتها ، استغلال الانسان للانسان، لان حرية الشعب في شروط كتلك لا يكون لها من اساس موضوعي فعلي . ان حرية كتلك شكلية خالصة ، والشعب لا يستطيع التمتع بها . المستغِلون هم وحدهم الذين يتمتعون بالحرية . يعلّمنا لينين انه لا يمكن ان تقوم قائمة لحرية فعلية في مجتمع يقوم في اساسه على سلطان المال ، يتخبط فيه الشغيلة في حبال البؤس وتحيا فيه حفنة من الاثرياء حياة طفيلية .

لا يفوز الشغيلة بحريتهم السياسية والاجتماعية الا متى أمسكوا بمقاليد السلطة وشادوا مجتمعا جديدا لا مكان فيه للمستغِلين والمضطهدين .

لا يشعر الانسان بأنه حر الا اذا توفر لديه اساس مادي كيما يتمكن من تحقيق اهدافه وصبواته . ويقدم المجتمع الاشتراكي هذا الاساس للناس الذين يعملون وينشطون . لذا نوه انجلز بأن **الاشتراكية قفزة من ملكوت الضرورة الى ملكوت الحرية .** وفي ظل المجتمع الاشتراكي وحده تتاح للناس القدرة على التحكم بمسيرة التطور الاجتماعي ، وعلى ان يكونوا سادة مصيرهم .

لقد اكدت التجربة التاريخية لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وفي أقطار اخرى استنتاج انجلز ذاك . ففي ظل الاشتراكية ينعتق الانسان من الخوف من فقدان عمله ، من عدم الاطمئنان الى الغد ، من الاستغلال والاضطهاد القومي ، وهذه مكاسب تم تحقيقها في البلدان الاشتراكية . لكن حركة الانسانية نحو حريتها لا تقف عند هذه الحدود . ففي المجتمع الاشتراكي الاعلى سينعتق الانسان انعتاقا كاملا من قوى الطبيعة الفطرية . وستتواجد جميع الشروط اللازمة لتمكينه من تعاطي عمل خلاق حر ، ومن تطوير جميع ملكاته ومواهبه . وبذلك يكون قد تم

تجاوز آخر عقبة على الطريق التي تقود البشرية الى مملكة الحرية الحقيقية .

المضمون والشكل

ان لكل شيء ، لكل ظاهرة صفات مميزة وسمات جوهرية. ومجموعها يؤلف مضمون الشيء المعطى . فمضمون كتاب من الكتب ، على سبيل المثال ، يتمثل في الاحداث ، والناس الذين يصورهم المؤلف فيه ، والافكار التي يعرضها . أما الشكل فهو اللغة ، الصور ، الاوصاف التي يلجأ اليها المؤلف للتعبير عن المضمون على أدق نحو .

ان المضمون ، كما ترون ، لا بد ان يكون له شكل . لا مضمون بدون شكل مناسب . وهكذا ، فان لكل شيء ، لكل ظاهرة لا مضمونا فحسب ، وانما ايضا شكل . وهذا الاخير هو تنظيم المضمون ، بنيانه ، ما يجعله ممكن الوجود .

يؤلف الشكل والمضمون اذن وحدة . وهما يترابطان في كل شيء ، في كل ظاهرة ، أوثق الترابط . وهنا يطرح سؤال نفسه: ما الدور الذي تلعبه كل من هاتين المقولتين ؟ ما المقولة السائدة ، الحاسمة ، في هذه الوحدة ؟

ليس من الصعب الاقتناع بأن شكل الشيء او الظاهرة يتعلق بمضمونهما ، وذلك واضح من المثال التالي : فأشكال تجمع الفلاحين في تعاونيات لا يمكن تحديدها عسفا واعتباطا ، وانما تتعلق بمستوى الانتاج الزراعي ولا بد من ان تتناسب وإياه. لهذا تقوم ، في العديد من الاقطار التي انعتقت مؤخرا ، أشكال محددة من التعاون : روابط مساعفةمتبادلة، تعاونيات للاستهلاك ولتصريف البضائع ، الخ . المضمون اذن يقتضي شكلا مطابقا له.

ان تعالق الشكل والمضمون لا يعني ان شكلا واحدا لا اكثر يجب ان يطابق مضمونا محددا . وذلك واضح من الامثلة التي تقدمها الحياة الاجتماعية ، حيث يفرض المضمون الشكل طبقا لشروط تاريخية عينية . لهذا لا يمكن ان يوجد شكل واحد ثابت جامد .

ان الثورات القومية والكولونيالية التي تشكل مضمون التحولات الاجتماعية يمكن ان تتم بأشكال بالغة التنوع . فقد تكون سلمية او غير سلمية . وأثناء الثورة يمكن ان يعاد استعمال بعض أشكال الحكم القديمة لوضعها في خدمة الشعب وملئها بمضمون جديد .

لكن اذا كان الشكل تابعا للمضمون ، فهل يعني ذلك انه لا يلعب اي دور ؟ كلا ، لا يجوز ان نهوّن من شأن الشكل الذي يمارس تأثيرا على المضمون . لنأخذ مثالا . استاذ يلقي محاضرة. جمع مواد كثيرة ، والوقائع التي يستشهد بها مثيرة للاهتمام . لكن الشكل الذي عرض به افكاره جاف ، باهت ، بلا حياة . فهل يكون لهذا الشكل من تأثير على المضمون ؟ بلا ادنى ريب : فالمضمون لن يشق طريقه بسهولة الى جمهور المستمعين . وبالمقابل ، اذا عرض استاذ آخر الوقائع ذاتها بأسلوب حي ، فستأتي النتيجة مغايرة تماما . فالمستمعون يكونون قد تمثلوا كل شيء ، والمحاضر يكون قد ادرك هدفه .

المضمون يؤثر اذن على الشكل ، كذلك فان الشكل يردّ بالتأثير على المضمون . ورد الفعل هذا يمكن ان يكون من نوعين . فاذا طابق الشكل المضمون ، ساهم في تطوره . واذا لم يطابقه أربكه وأعاق تطوره . لكن دوره في جميع الاحوال فعال .

من الامثلة المتقدم ذكرها يتضح لنا اننا لا نستطيع في نشاطنا العملي ان نعزو الدور الحاسم الى المضمون وحده ، متناسين تأثير الشكل . فالشكل يمكن ان يساهم في تطور المضمون .

لكن كيف السبيل الى معرفة ما اذا كان الشكل يعيق

المضمون ؟

ليس ذلك بالامر الصعب اذا اخذنا بعين الاعتبار ان كل شيء يتطور . والمضمون لا يتوقف أبدا في تطوره . والشكل يتطور هو الآخر ، لكنه اكثر استقرارا ، وأقل حركة . انه يتأخر عن مضمونه . الشكل والمضمون ضدان . وحين ينقلب تعارضهما الى تناقض ، يتطلب هذا الاخير ان يوجد له حل .

ان كل ابتكار جديد يرى النور في اطار شكل قديم . هكذا كانت السيارة الاولى نسخة طبق الاصل عن العربة المعروفة باسم الكروسة Carosse . لكن يأتي حين يغدو فيه الشكل القديم كابحا لتطور صفات جديدة للعربة ، لتطور مضمونها الجديد . وهكذا غدا الشكل القديم للسيارة عقبة امام زيادة سرعتها ؛ فما كان هناك بد من اعطائها شكلا صاروخيا Aérodynamique .

في الحياة الاجتماعية نصطدم ايضا بضرورة مواجهة التناقضات التي تقوم بين الشكل والمضمون . ففي بعض الدول المستقلة ، على سبيل المثال ، يدخل النشاط الاداري لزعماء القبائل او لشيوخ الاسر الكبيرة في تناقض مع المهام التي يمليها بناء حياة جديدة . وتدعو الحاجة الى استبداله بشكل آخر للادارة : ادارة ممثلي الحكومة او الحزب او الهيئات المنتخبة محليا .

كيف السبيل الى امتصاص المنازعات التي تنشب بين الشكل والمضمون ؟ بطرق مختلفة حسب الظروف : بطريق سلمي او غير سلمي تبعا لشروط المكان والزمان .

في البلدان الاشتراكية والبلدان التي سارت في طريق التطور غير الرأسمالي ، يتم التخلص من تلك التناقضات من خلال التعديل التدريجي للاشكال القديمة ، بمبادرة من الحزب والدولة .

ان اولئك الذين يغالون في دور الشكل ولا يرون المضمون خلف الشكل ينزلون اذى فادحا بالقضية ، وذلك يقودهم الى

النزعة الشكلية . فعلى سبيل المثال ، يرسم بعض الفنانين لوحات بلا موضوع ، بلا مضمون ، لا تعدو كونها بقعا وخطوطا موزعة بلا هدف . وهذه الشكلية المشتطة في الفن تناقض الفن الحقيقي ، الفن الذي يطابق فيه الشكل الفني الامثل مضمونا عميقا .

لا تتجلى الشكلية في الفن فحسب ، بل ايضا في مسلك الناس ازاء عملهم ، ازاء أقرانهم . الشكلية تسبب الضرر اينما كان . الشكلية لا ترى الانسان الحي بحاجاته وصبواته. والشكلي في الحياة العملية بيروقراطي يقضي باليباس على كل عمل حي . لهذا ينبغي ان نكافح الشكلية .

لقد درسنا اذن القوانين والمقولات الاساسية للجدل المادي . أما مقولتا الماهية والظاهرة فمن الانسب دراستهما في اطار نظرية المعرفة . وثمة سؤال يطرح نفسه هنا : ما سبيل العلم الى معرفة العلاقات ، القوانين ، الماهية ؟ هذا ما سنراه الان .

الفصل الخامس

نظرية المادية الجدلية في المعرفة

الماهية والظاهرة

يعلمنا العلم والممارسة ان للاشياء مظهرين : مظهرا باطنيا مستترا عن أعيننا ، ومظهرا خارجيا يقع في متناول ادراكنا الحسي . وحين يقع شيء من الاشياء تحت اعضاء حواسنا ، لا ندرك منه في البداية سوى بعض التظاهرات المنعزلة وبعض وشائجه الخارجية . وبعبارة اخرى ، ان **عالم الظاهرات** هو الذي يتجلى لنا اولا .

والحال ان العلم والممارسة لا يمكنهما الاكتفاء بمجرد الادراك الحسي البسيط للظاهرات والوقائع والاحداث المنعزلة ، كما لا

يمكنهما الاكتفاء بوصفها . فهدفهما الوصول الى القوانين الاساسية ، الثابتة ، التي تحكم الظاهرات ، والعلاقات العلية التي تولدها ، وترابطها العميق. ولا تقع قوانين الطبيعة والمجتمع في متناول الادراك الحسي المباشر ، ولا تتطابق مع الظاهرات . وتسليط الضوء على منطق تطور واقع ما يعني ان نتعلم كيف نعرف طبيعته العميقة ، كيف ننفذ الى ما يربط في كل واحد الوقائع التي تؤلفه ، الى ما يشكل جوهره وأهم ما فيه .

وفي تنوع الظاهرات تحديدا تختفي **ماهيتها** ، علاقتها الباطنة ، قوانين تطورها .

في المجتمع الرأسمالي ، يقع نظر المرء باستمرار على ظاهرات من أشباه الازمات ، والبطالة ، وإفقار الشغيلة ، وامملاق الفلاحين ، والاضرابات ، والمظاهرات ضد نير الاحتكارات. وخلف هذه الظاهرات تختفي ماهية الرأسمالية ، نظام الاستغلال والاضطهاد .

الماهية ، كما نرى ، هي التعبير عن العلاقة الباطنة للعالم الموضوعي ، وهي تشكل اساس تعدد الظاهرات ؛ اما الظاهرة فهي الماهية وقد برزت الى النور ، الشكل الخارجي لتظاهرها . وعليه ، ليست الماهية شيئا وجد قبل الظاهرات ويوجد مستقلا عنها . بل تعكس الماهية والظاهرة الجوانب المختلفة لواقع واحد: فالماهية تعكس جوانبه الباطنة ، الرئيسية ، والظاهرة تعكس مظاهره الخارجية ، المباشرة .

وليس لنا ان نتصور وحدة الماهية والظاهرة على انها تطابق. فلو كان كل شيء موجودا على سطح الظاهرات ، لأمكن فورا ودفعة واحدة اكتشاف قوانين تطور الطبيعة والمجتمع . والحال انه ليس ثمة شيء من هذا : فلمعرفة ماهية ظاهرة من الظاهرات، لا بد ان ينجز العلماء عملا معقدا . ويقتضي اكتشاف الماهية دراسة علمية ترتكز الى الممارسة .

الشمس ، على سبيل المثال ، تبدو وكأنها تدور حول الارض الثابتة . والحال ان هذا الظاهر يناقض الماهية كما ازاح النقاب عنها العلم والتجربة . وفي الواقع ، ان الارض هي التي تدور حول الشمس .

في الحياة الاجتماعية تسعى القوى الرجعية جاهدة الى تشويه الماهية وحجبها عن الانظار .

يعرض الامبرياليون ، على سبيل المثال ، «مساعدتهم» على البلدان التي خلعت عنها نير الاستعمار . لكنهم يسعون ، تحت ستار المساعدة ، الى استعباد تلك البلدان اقتصاديا، حتى يبعثوا الاستعمار الى الحياة في شكل مغاير . ويجري تمويه ماهية الامبريالية عن عمد : فهي تتنكر في ثياب «صديق» للشعوب ، وبخاصة شعوب البلدان المتخلفة .

يفصل المثاليون الماهية عن الظاهرة . وتقدم لنا فلسفة عمانوئيل كانط مثالا نموذجيا على هذا الفصل . فقد كان هذا المفكر يقسم الواقع الى عالم ظاهرات وعالم ماهيات ؛ وعالم الماهيات ، او كما كان يدعوها «الاشياء في ذاتها»، كان في رأيه عصيا على المعرفة . وتثبت المادية الجدلية ، على العكس ، امكانية معرفة ماهية الاشياء وقوانين تطور العالم .

عظيمة هي قوة المعرفة ، والانسان المسلح بها لا يمكن قهره . ولو كنا لا نعرف ما يجري في العالم ، لما كان امكننا ان نحيا ونشتغل فيه . ولما كان امكن تحقيق منجزات العبقرية الانسانية من أشباه الاقمار الاصطناعية والصواريخ الكونية وتدجين الطاقة الذرية ، بل لولا المعرفة لما كان امكن القيام بأي عمل مهما يكن بسيطا .

ومع ذلك ، يوجد أناس يؤكدون ان الانسان لا يستطيع ان يصل الى افكار صحيحة عن العالم ، اي ان يعرفه .

تقول الحكمة الشعبية : العلم نور . ولكن لا يحب الناس كلهم النور ، وهذا امر مفهوم . فتسليط الحزمة الضوئية

الساطعة للعقل الانساني على العالم يعني أن الانسان يرى فيه ويتعلم ان يرى فيه الكثير من الاشياء ، ويعني ان في مستطاعه ان يفعل فيه الكثير من الاشياء .

وهذا بالضبط ما يخشاه دعاة التعمية والتجهيل من كل نوع ولون ومضطهِدو الشعوب ، لأن الانسان بحصوله على المعارف يخلع عن نفسه نير العبودية الاجتماعية او السياسية او سواها ، ويصبح سيد نفسه وباني حياته . وليس من قبيل المصادفة ان تكون الشعوب التي خلعت عنها نير الاستعمار ، التي طردت المضطهِدين الفرنسيين والانكليز والاميركان وغيرهم ، قد شرعت على الفور بإزالة الأمية وبالدراسة . لكن ثمة أناس يشكون في معارفنا . من هم ؟

يؤكد بعض الفلاسفة المثاليين ان العالم لا يمكن ان يعرف ، وهم يسمون باللاأدريين (١) .

تنكر اللاأدرية امكانية معرفة العالم ، وتستخدمها الفلسفة البورجوازية المعاصرة على نطاق واسع .

ما الحجج التي يتذرع بها اللاأدريون تأييدا لأطروحاتهم ، وهل لها قيمة تذكر ؟ انَّ العالم لا يمكن ادراكه الا بواسطة اعضاء حواسنا : النظر ، السمع ، اللمس ، الخ . لكن الحواس ، على ما يقول اللاأدريون ، شهود لا يوثق بهم كثيرا . فما اكثر ما تخدعنا حواسنا ! ان ملعقة صغيرة مغطوسة في قدح ماء تبدو لنا محطمة ، مشوهة ، ومن بعيد يبدو لنا المنزل أصفر مما يبدو

---

١ ـ حدد لينين في مؤلفه الفلسفي «المادية والتجريبية النقدية» على النحو التالي ذلك التيار الفلسفي : «كلمة اللاأدري جاءت من اليونانية: الـ «لا» اداة تصدير نافية ، و«أدري» هي المعرفة . اللاأدري يقول : اني أجهل ما اذا كان يوجد واقع موضوعي ، منعكس ، متصور باحساساتنا ، واني أعلن انه من المستحيل معرفة ذلك» .

عن قريب . اذن لا نستطيع ان نصدق ما تقوله الحواس ؛ ذلكم هو الاستنتاج الذي يخلص اليه اللاأدريون . فهل الامر كذلك في الواقع ؟

من يسمعهم يخيل اليه ان الانسان لا يفعل شيئا غير ان يهيم على وجهه وينظر بعيون عاجزة الى الاشياء التي تحيط به . والحال ان ذلك غير صحيح . فليس الانسان متفرجا في العالم ، وانما هو صانع ، خالق . **والعمل والممارسة هما اللذان يتيحان للانسان امكانية ضبط تأشيرات حواسه ، والوصول الى ماهية الاشياء ، والنفاذ الى أعماق الظاهرات المدروسة** . وفي مثالنا ، يكفيه ان يسحب الملعقة من الماء حتى يقتنع بأنها غير مشوهة .

ان مسألة معرفة ما اذا كان في الامكان ان نعرف العالم تحلها ، كما نرى ، الممارسة ، الحياة . وانما أثناء عمل الانسان ونشاطه الانتاجي ينفذ الى ماهية العالم المحيط ويتعلم كيف يعرفه .

لكن ماذا يفعل الناس حتى يحصلوا على هذه المعارف ؟

درجات المعرفة

لنتخيل اننا أُرسلنا لدراسة العمل في احدى التعاونيات . بمَ نبدأ هذه الدراسة ؟ بجمع الوقائع بالطبع : عدد الشغيلة ، اساليب الزراعة والحصاد ، تنظيم العمل ، الخ . ثم نستخلص استنتاجات عن الحياة والعمل في تلك التعاونية .

هذا المنهج نفسه يستخدم من قبل جميع اولئك الذين يعملون في مضمار اكتشاف قوانين الطبيعة ومعرفتها : **فهم يجمعون اولا الوقائع** من خلال اجراء تجارب او ملاحظة الاشياء ، وعلى كل الاحوال ، باللجوء الى اعضاء الحواس . تلك هي **اولى درجات المعرفة : المعرفة الحسية او الحدس الحي** .

بعد ان نجمع عددا كافيا من الوقائع ، يتولى عقلنا تحليلها ، ومقارنتها فيما بينها ، ويستخلص استنتاجات . وتلك هي **ثانية درجات المعرفة : المعرفة المنطقية ، العقلية، او الفكر المجرد.** لكن درجة المعرفة الاولى والثانية تتمان كلتاهما على اساس النشاط العملي . فمن الممارسة ، من الحياة نأخذ الوقائع كي نحللها . كذلك فان الحياة والممارسة تحتاجان بدورهما الى الاستنتاجات التي نستخلصها من تلك الوقائع . فهذه الاستنتاجات لا غنى عنها لتحسين اشتغال التعاونية ، على سبيل المثال ، ولرفع مردود الاراضي المزروعة .

تتألف سيرورة المعرفة اذن من المعرفة الحسية والمعرفة المنطقية اللتين نكتسبهما على اساس الممارسة. كتب لينين يقول: «من الحدس الى الفكر المجرد ، **ومنه الى الممارسة** ، ذلك هو الطريق الجدلي لمعرفة **الحقيقة** ، لمعرفة الواقع الموضوعي» .

في تاريخ العلم ، تذكر الحادثة التالية .

جيء ذات يوم بمريضة الى عيادة . كانت جميع اعضاء حواسها الاساسية مشلولة : البصر ، السمع ، الشم والذوق . وكان جلد احدى يديها هو وحده الذي حافظ على حساسيته . كان القناة الوحيدة التي تصل المعارف عن طريقها الى المريضة . ولكن ما كان أفقرها من معارف ! كانت في غالب الاحيان في حالة من الغفو العميق . ماذا تقول لنا هذه الواقعة ؟ تقول لنا ان اعضاء حواسنا هي الاقنية التي ينفذ من خلالها العالم المحيط الى دماغ الانسان . فتأثير العالم الخارجي يثير فيها الاحساس . ولا يسعنا أن نعرف شيئا من العالم المحيط عن غير طريق الاحساسات .

في حال فقدان الانسان لعضو من اعضاء حواسه ، يستطيع ان يعوض جزئيا عن هذه الخسارة بواسطة الاعضاء الاخرى . لكنه اذا حرم من اعضاء حواسه جميعا ، امسى عاجزا عن معرفة

الواقع . انه لن يعرف شيئا عن العالم . **ان الاحساس هو نتيجة الفعل الذي تمارسه اشياء العالم الخارجي على اعضاء حواسنا .** ولهذا يعطينا معرفة حقيقية ، صحيحة ، بالعالم المحيط .

لكن كيف نثبت ان الاحساسات تعطينا معرفة صحيحة بالعالم ؟ ان تجربتنا ، في المقام الاول ، هي التي تثبت لنا ذلك . فلو كانت الاحساسات لا تعطينا معارف هي بوجه الاجمال صحيحة ، لما كان امكن عمليا للانسان ان يستخدم أشياء العالم الخارجي : فالمواد ، التي قد تقول له اعضاء حواسه انها نافعة لجسمه ، قد تكون ضارة به ، والعكس بالعكس .

ان عيننا ، على سبيل المثال ، تبدو وكأنها تصور فوتوغرافيا الاشياء التي تنظر اليها . فاذا تحرك الشيء ، ظهرت على الشبكية صورة شيء يتحرك . واذا كان الشيء ساكنا ، فستأتي الصورة صورة شيء ساكن . ان العين تعكس ، تنسخ ما يحيط بنا . على هذا النحو تعمل اعضاء حواسنا جميعا . يخطيء اللاأدريون اذن اذ يؤكدون ان اعضاء الحواس شهود لا يوثق بهم .

لكن كيف نفسر ، والحالة هذه ، الزيغ الذي تقع الحواس احيانا ضحية له ؟ نستطيع تفسير ذلك على النحو التالي . لو كان الانسان يدرك العالم بإحساساته وحدها ، لما كنا عرفنا بالفعل سوى المظهر الخارجي للاشياء . والحال ان هذا المظهر خداع احيانا . فبناء على شهادة حواسنا ، نعتقد ان الشمس «تغرب وتشرق» ، ولكن ذلك ، كما نعلم ، خداع بصري. وللسبب نفسه ، نعتقد ان الماء الموجود في كأس بلورية «صافٍ كدمعة» . والحال انه يحتوي على آلاف الكائنات الحية الدقيقة : الجراثيم. بيد اننا نستطيع ، بمساعدة فكرنا ، أن نراقب ، نتحقق ، نضبط المعطيات التي تقدمها اعضاء حواسنا ، فبمساعدة الفكر يتجاوز الانسان احساساته . هذا يعني ان العقل الانساني ، بالرغم من وضعه ثقته في حواسه واستخدامه لمعطياتها ، ينفذ الى حيث لا تستطيع الحواس نفاذا .

ما الدور الذي يلعبه الفكر في معرفة العالم ؟

هوذا مثال . لاحظ طيار ، كان يحلق فوق مناطق مختلفة من البلاد ، ان الابرة المغنطة لبوصلته تتحرك حركة غير عادية فوق احداها . ففي كل مرة كانت الطائرة تحلق فوق تلك المنطقة ، كانت الابرة المغنطة تبتعد عن اتجاه الشمال ـ الجنوب .

استنادا الى هذه الوقائع استنتج العلماء انه يوجد ولا بد في باطن الارض في المنطقة المعنية طبقات غير قليلة من فلزات الحديد تقضي على الابرة المغنطة بالانحراف ، وتأكد ذلك نتيجة للتنقيب الجيولوجي . وهكذا تم اكتشاف منجم جديد لفلزات الحديد .

بديهي انه لولا تلك الوقائع المستقاة على اساس معطيات الحواس ، لما كان عرف احد باحتواء تلك المنطقة على كنز حقيقي، بيد ان ذلك الاستنتاج تم الوصول اليه على اساس المعطيات الحسية ، ولكن ليس من قبل الحواس ذاتها . فالعلماء لم يشاهدوا فلزات الحديد ، بل راقبوا «السلوك» الغريب للابرة المغنطة ، اي ما كان موجودا على سطح الظاهرات . اما فلزات الحديد ذاتها فكانت مختفية في باطن الارض .

لقد اقتضى الامر تدخل العقل لاستخلاص الاستنتاجات التي كانت تفرض نفسها . بواسطة الفكر اذن يكوّن الانسان فكرة عن الماهية ، عن العلاقات الباطنة ، اي عن قوانين تطور الظاهرات . واذا كانت الاحساسات تربط الانسان بالاشياء الخارجية ربطا مباشرا ، فان الاستنتاجات والاستنباطات تتم على اساس المعطيات غير المباشرة . فلمعرفة ما اذا كان في وسع الانسان على سبيل المثال ان يسافر على متن سفينة كونية من دون ان يجازف بحياته ، كان لا بد اولا من القيام بتجارب على الحيوانات : فجرى ارسال كلاب في صواريخ وسفن فضائية . وطبقا للمعطيات التي تم تحصيلها ، خلص العلماء الى الاستنتاج بأن أسفار الانسان في الفضاء لا تنطوي على خطر . وقد تأكدت

صحة هذا الاستنتاج بالنجاحات الباهرة لرواد الفضاء الاوائل .

بدون وقائع ، لا استنتاجات . والعلماء بحاجة الى الوقائع حاجة الانسان الى الهواء ، والوقائع تقدمها لنا احساساتنا .

كيف تُستخلص الاستنتاجات انطلاقا من الوقائع ؟

بفضل القدرة التي يمتلكها **الفكر** على التعميم . فالفكر يجمع في كل واحد السمات الاساسية المستقاة من بعض الوقائع ، ويخلق مفاهيم ، افكارا عامة ، صورا ، ويستخلص استنتاجات لها دلالة عامة بالنسبة الى مجموعة كاملة من الظاهرات .

تقدم الاحساسات الى العقل المعطيات والوقائع التي يحتاج اليها ، وحين تصبح هذه الوقائع بحوزة العقل ، يعمد الى التعميم . تلك هي الدرجة العقلية في المعرفة . ولو حرم الدماغ او العقل من الاحساسات لتوقفا عن العمل . ولولا عمل الدماغ الناظم ، لما وجدت معرفة حسية . **عليه ، تؤلف المعرفة الحسية والمعرفة العقلية مرحلتي السيرورة الواحدة والمتلاحمة للمعرفة التي تتم على اساس الممارسة** . ولا سبيل الى فصل واحدتهما عن الاخرى . بيد ان محاولات من هذا القبيل جرت اكثر من مرة في تاريخ الفلسفة . كان بعض الفلاسفة يقولون ان الانسان يتعلم ان يعرف العالم بواسطة العقل وحده . انهم **العقلانيون** . وكان آخرون يؤكدون ، على العكس ، ان الانسان يتعلم ان يعرف العالم بواسطة الاحساسات وحدها . انهم **الحسويون** .

يكمن ضيق نظرة العقلانيين في كونهم ينبذون معطيات الحواس والتجربة الشخصية . والحال ان العقل لا يستطيع ان يقدم معارف جديدة الا حين تغنيه التجربة الشخصية ، ومعرفة الاشياء والظاهرات ، تلك المعرفة التي تتيحها الممارسة .

لكن يخطىء ايضا اولئك الذين يؤكدون ، على غرار الحسويين ، ان التجربة الشخصية والادراك الحسي المباشر للواقع من قبل اجهزة الحواس هما وحدهما القادران على تزويدنا بالمعلومات والمعارف عن العالم الخارجي .

يتبين لنا اذن انه لا تجوز المبالغة في دور اي من درجتي المعرفة . فالمعرفة الحسية والمعرفة العقلية متعادلتا الاهمية ولا يمكن ان توجد واحدتهما بدون الاخرى . وينجم عن ذلك استنتاج له اهميته بصدد وحدة النظرية والممارسة .

دور الممارسة في المعرفة

يتم تحصيل المعرفة الحسية والمعرفة العقلية في الممارسة . ولو كان الناس لا يحركون ساكنا ، لما عجزوا عن الوصول الى اي معرفة فحسب ، بل لما كان امكنهم الوجود اصلا . حين خلع البشر عن انفسهم نير العالم الحيواني ، ما كانوا يعرفون شيئا بعد عن تطور الطبيعة ، لكنهم كانوا قد بدؤوا العمل : فقد كانوا يتدبرون قوتهم ، ويبتنون لأنفسهم مساكن ، ويصنعون ملابس . وانما في ممارسة الحياة اليومية تعلم الانسان كل ما هو بحاجة اليه للكفاح ضد الطبيعة .

ان التجربة اليومية لتقنعنا بذلك . فالانسان يأتي الى العالم خاوي الوفاض من المعرفة ، ثم يطفق يكسب معارف طردا مع احتكاكه بالظاهرات المحيطة من خلال سيرورة الممارسة . وحين يمد الطفل الرضيع يديه الى لسان اللهب لكي يمسك به ، فانه يكون ما يزال جاهلا بخواص النار ؛ لكن بعد ان يتعرفها في الممارسة يحاذر تكرار بادرته . وبذلك يكون قد اكتسب معارف معينة .

ولكن الممارسة لا تتألف من التجربة الفردية وحدها . فنحن لا نعتمد في نشاطنا على تجربتنا الشخصية وحدها ، بل ايضا على تجربة الآخرين ، اي التجربة الجماعية للانسانية قاطبة . وما **الممارسة الاجتماعية** الا نشاط البشر في مجموعهم ، ذلك

النشاط الذي به يفعلون في العالم المادي ويحولونه : انه النشاط الانتاجي ، صراع الطبقات ، حركة التحرر القومي ، البناء الاشتراكي ، التجريب العلمي ، الخ . والمعارف كلها تستمد في التحليل الاخير من الممارسة الاجتماعية للبشرية . ويقدم لنا تاريخ العلم براهين كثيرة على ذلك .

كيف ولد ، على سبيل المثال ، علم الهندسة ؟ منذ سحيق العصور أحس البشر على الدوام ، اثناء فلاحتهم لحقولهم وبنائهم لمساكنهم ، بالحاجة الى قياس اراضٍ من أحجام وأشكال مختلفة ، ورويدا رويدا اكتشفوا ان هناك طرائق عامة للقياس يمكن اعتمادها في قياس اي ارض اذا كان لها شكل محدد : مثلث ، مربع منحرف ، الخ . وكل علم ، ما دام تعميما للممارسة ، يرى النور على ذلك النحو .

تنبع المعرفة العلمية اذن ، وكذلك النظرية ، من الممارسة ، اساس المعرفة .

وليست **الممارسة** اساس المعرفة فحسب ، بل هي ايضا **محركها** . فلئن كانت الحياة تتطلب منا ان نجد أحسن طريقة للفلاحة ، فان هذه المهمة ، التي تطرحها الممارسة ، تلعب دور الحافز بالنسبة الى تطور علم الهندسة الزراعية .

كان لينين يقول ان وجهة نظر الحياة ، وجهة نظر الممارسة يجب ان تكون وجهة النظر الاولى ، الاساسية ، لنظرية المعرفة .

لكن الا نكون بذلك قد قلصنا اهمية النظرية والعلم في نشاط البشر الانتاجي او الثوري ؟ يسعى اعداء الماركسية ، التحريفيون ، الى اثبات ان الماركسيين ــ اللينينيين ، بتوكيدهم الدور الراجح للممارسة في المعرفة ، ينكرون دور النظرية . انهم يتهمون الماركسيين بـ «النزعة العملية الضيقة» ، اي بـ «ازدراء» النظرية . لكن ذلك كذب محض . فجميع الاحزاب الماركسية ــ اللينينية قد علقت على الدوام وتعلق اهمية فائقة على النظرية . وكان لينين يعلمنا ان النظرية تنير درب الممارسة .

لهذا كان الاقرار بأهمية الممارسة «فقط» ، او بأهمية النظرية «فقط» ، تنكرا للمادية الجدلية .

تؤلف النظرية والممارسة وحدة جدلية . ويتعذر فصل واحدتهما عن الاخرى . النظرية تولد من الممارسة . لكنها في الوقت نفسه تفيدها ، تغنيها . ولا يمكن ان توجد نظرية من دون ممارسة . لكن من دون نظرية ثورية ، لا يمكن كذلك ان توجد ممارسة ثورية . النظرية بدون الممارسة جثة ، وفي هذه الحال لا تفيد المبادىء النظرية ولا تغني شيئا . لكن بدون نظرية علمية، تكون الممارسة عمياء ، بلا آفاق ؛ وبدونها ايضا يتعذر تولي القيادة المتخصصة لمشروع ، لتعاونية ، او لبلد .

لا يمكن ان يوجد اذن اختصاصي جيد ، متفتح الذهن نظريا، اذا كانت دراسته منقطعة عن الممارسة وعن النشاط الانتاجي ، وانما عندما يعمل الاختصاصي في الانتاج ويكتسب تجربة معينة وعادات معينة ، تغدو جذور معارفه النظرية عميقة . وفي الحياة توكيد لذلك .

اذن **فالوحدة التي لا تفصم لها عرى بين النظرية والممارسة هي أهم أطروحة في نظرية المعرفة الماركسية .**

على مدى قرون وقرون بقي ألوجه غير المنار للقمر مجهولا ، وكان بعض الفلاسفة يصرحون ان الانسان لن يصل ابدا الى فك ألغازه . ولكن ثبت تهافت هذا الزعم . فقد اخترع السوفييت محطة آلية عابرة للكواكب ، فدارت حول القمر وصورت فوتوغرافياً وجهه غير المرئي . ويشكل هذا الانجاز دحضا عمليا جديدا للاأدرية . فمن يصدق اليوم اللاأدريين الذين يؤكدون ان ثمة «حدودا» للمعرفة ، بعد ان انطلق الانسان عبر الفضاء ووسع نطاق معارفه على نحو مرموق عن الكون ؟

تذلل البشرية ، في معرفتها للطبيعة ، عقبة تلو الاخرى . وهذا ما يجعل من الماركسية ـ اللينينية فلسفة عظيمة التفاؤل :

فهي تعلن ايمانها العميق بعقل الانسان .

تمضي المعرفة الانسانية اذن من الجهل الى العلم ، من معرفة ناقصة الى معرفة اكمل فأكمل على الدوام .

ما الحقيقة ؟

نطلق صفة الصدق على كل معرفة غير مختلقة ، وتطابق ما هو موجود . والحقيقة عكس الخطأ والكذب . وتوكيداتنا كاذبة اذا كانت تؤكد ما لا وجود له في الواقع ، وهذا ما يشكل اساس التصور المادي للحقيقة .

وعليه ، ما دامت المعارف الانسانية تحمل صفة الصدق اذا كانت مطابقة للواقع ، فانها لا تتعلق والحالة هذه بعسف الناس ورغائبهم . من هنا تنبع أطروحة **الطابع الموضوعي للحقيقة** . والفلسفة الماركسية ـ اللينينية هي السباقة الى الاعلان عن هذه الاطروحة وهي التي برهنت على صحتها .

يطلق لينين ، في مؤلفه «المادية والتجريبية النقدية» ، اسم **الحقيقة الموضوعية على ما لا يتعلق ، في التصورات الانسانية بالذات ، على ما لا يتعلق لا بالانسان ولا بالانسانية .**

ماذا ينبغي ان نفهم من ذلك ؟ لعل الحقيقة هي الطبيعة بالذات ، ما دامت ذات وجود موضوعي ، اي مستقل عن الانسان والانسانية ؟ كلا ، ففهم الحقيقة الموضوعية على هذا النحو خطأ وضلال . ان ما هو موجود لا يمكن ان يكون صحيحا او خاطئا . انه موجود فحسب ، ولا تكون صفة الصحة او الخطأ الا لمعارف الناس وآرائهم ومزاعمهم ، وليس للواقع ذاته .

يمكن هنا ان ينطرح سؤال آخر . فاذا كانت الحقيقة هي ما يعرفه الانسان ، فلماذا نؤكد انها لا تتعلق لا بالانسان ولا بالانسانية ؟ ألا يكتسب الناس معارف بعملهم ، بأبحاثهم ؟ يحاكم

بعضهم الامور على النحو التالي : ما دامت الحقيقة لا توجد خارج الانسان ، فلا وجود اذن لحقيقة موضوعية ، وانما الحقيقة ذاتية على الدوام ، ومتعلقة على الدوام بالانسان ، لكن هذه المحاكمة متهافتة .

صحيح انه ليس للحقيقة من وجود خارج الانسان ، لكن ما يشكل مضمون الحقيقة ليس منوطا بالانسان . فليست رغبة الانسان هي ما يضفي على مزاعمه وآرائه صفة الحقيقة ، وانما انسجامها مع الواقع الموضوعي ، مع ما يوجد في العالم مستقلا عن الفرد . لذا كان لينين يقول ان الحقيقة الموضوعية لا تتعلق لا بالانسان ولا بالانسانية ، وبعبارة اخرى ، لا تتعلق بعسف الناس . فالانسان لا يخلق الحقيقة ، وانما يعكسها طبقا لما هو موجود في الواقع الموضوعي .

من الاهمية بمكان ، بالتالي ، ان نستند في نشاطنا العملي ، في حياتنا اليومية ، الى توكيدات وأحكام مطابقة للواقع . لكن ما يضمن للناس صدق معارفهم وانسجام هذه المعارف مع الواقع ؟ وبعبارة اخرى ، ايـن **المعيار** ، اي مقياس صحة معارفنا ؟

يزعم بعض الفلاسفة البورجوازيين ان الفكرة تكون صحيحة اذا كانت نافعة ومفيدة للناس . انهم الذرائعيون او البراغماتيون (من اللفظة اليونانية «براغما» التي تعني عملا ، شغلا) . وليس معيارهم عن الحقيقة معيارا موضوعيا ، وانما ذاتي . فما من نظرية او فكرة مغلوطة ولا معقولة الا وتعود بالنفع احيانا على هذا الانسان او ذاك ، على هذه الطبقة او تلك . ومن قبيل ذلك الفكرة التي لا جدال في لامنطقيتها ولامعقوليتها ، فكرة الرسالة «التمدينية» للمستعمِرين ، فهي نافعة لمضطهدي الطبقة الشغيلة، لكنها خاطئة .

لكن أليست النظريات الصحيحة نافعة ؟ الا تخدم المعادلات

التي تصوغها الرياضيات والفيزياء اهدافنا ؟ بلا مراء : فهي نافعة للناس . ولكن ليس ذلك هو السبب الذي يجعل هذه النظريات صحيحة . بل على العكس ، فهي نافعة للناس على وجه التحديد لانها صحيحة ، اي لانها تعكس بصحةٍ العالم الواقعي .

يقول فلاسفة آخرون : الحقيقة هي ما يتفق عليه الناس ، او غالبيتهم . هذا المعيار ذاتي هو الآخر . فليس امرا ذا بال ان نتيط الحقيقة برغائب عدد كبير او صغير من الناس ، فقد يحدث أن يصدر الخطأ حتى عن الكثرة .

اين نعثر اذن على معيار للحقيقة لا يتعلق برغائب الناس وآرائهم، بل يكون موضوعيا؟ هذا المعيار هو الممارسة الاجتماعية. فنشاط الناس العملي هو الطريقة الاكيدة والمأمونة الوحيدة التي تسمح بالتحقق من صحة آرائنا ونظرياتنا وأفكارنا او من خطئها. وقد كتب ماركس يقول انه على الانسان ان يثبت في الممارسة تحديدا حقيقة فكره وقوة فكره .

اذا اكدت الممارسة المعارف التي تم تحصيلها على أثر دراسة الواقع ، تكون هذه المعارف صادقة ، صحيحة ، فوق كل شك. وبالمقابل ، فان النظريات التي لم تصمد لامتحان الحياة والممارسة هي نظريات خاطئة . فالنظريات التي تؤكد خلود الرأسمالية ، على سبيل المثال ، لم تصمد لامتحان الحياة والممارسة . وقد لفظت ممارسة العديد من شعوب الارض هذه النظريات بوصفها خاطئة .

لماذا نتحقق من صدق معارفنا وصحتها بالممارسة ؟ اننا لا نسعى الى معرفة الحقيقة بباعث الفضول الباطل . فالفكرة التي يتقدم بها مخترع من المخترعين ، عالم من العلماء ، لا يكون لها من قيمة الا اذا كان في الامكان وضعها موضع التطبيق . لكن هل من الممكن وضع كل فكرة موضع تطبيق ؟ كلا . فليس يصلح للتطبيق سوى الفكرة الصائبة ، الصحيحة . اما الافكار الخاطئة

فلا سبيل الى تطبيقها ، لانها لا تطابق الواقع . لهذا نتحقق من صدق معارفنا وصحتها بالممارسة .

بناء على ما تقدم، يكون منسجما مع الواقع ما تؤكده الممارسة وما يمكن وضعه موضع تطبيق .

فعلى سبيل المثال ، حين نحاول تقييم نشاطنا الانتاجي ، العلمي ، الاقتصادي ، السياسي ، فلا بد من الاسترشاد بمعيار وحيد : معيار النتائج العملية المتحققة . الحياة هي الحكَم الاعلى. فاذا دحض الواقع حساباتنا ، افتراضاتنا ، فرضياتنا ، يجب ان يكون لنا من الشجاعة القدر الكافي للعزوف عنها ، لاعادة النظر في معارفنا ، لجعلها منسجمة مع التجربة والممارسة . لكن اذا أبدينا عنادا ، اذا لم نقم اعتبارا للوقائع ، تعثرنا وزلت بنا القدم لا محالة .

يلجأ الناس على الدوام الى الممارسة ــ معيار الحقيقة ــ كلما ارادوا معرفة قيمة التوكيدات والوعود والاقوال . فالافعال والاعمال هي على الدوام خير محك لها .

الممارسة اذن هي معيار الحقيقة ، منبع المعرفة وهدفها .

سؤال آخر : كيف نعرف الحقيقة الموضوعية ؟ ادفعة واحدة ام تدريجيا ؟

ان العلم لا يستطيع ان «ينجز» او ان «ينهي» سيرورة المعرفة ، وتاريخه يشهد على ان كل حقيقة علمية لم تكتشف دفعة واحدة ، وانما بالتدريج . ما تفسير ذلك ؟

يدرس كل انسان الطبيعة بواسطة الوسائل المتاحة له ، المقدمة له من المجتمع .

وقد مر حين من الزمن لم يكن فيه تحت متناول الباحثين لا ميزان ، ولا مقياس حرارة ، وكم بالاحرى مجاهر او مراصد . وبديهي ان ذلك كان يحد من امكانياتهم . وقد بات العلم اليوم مسلحا بأعقد الادوات . لكن هل يمكن ان يخامرنا شك في ان

هذه الادوات لن تتحسن في المستقبل ، وأن الناس لن يعرفوا عن الطبيعة اكثر مما يعرفون عنها اليوم ؟

لكن اذا لم يكن ثمة وجود لمعارف كاملة ، ناجزة ، واذا كانت المعارف جميعا نسبية ، فهل **للحقيقة المطلقة** من وجود ؟ اي الحقيقة التامة ، الكاملة ، الشاملة ؟

يجيب بعض الفلاسفة على النحو التالي : لا وجود لحقيقة مطلقة ، وانما هناك فقط **حقائق نسبية** . فكل شيء في معارفنا عابر ، عارض ، مائع ، ولا شيء ثابت . ولهذا يسمى اولئك الفلاسفة ب «النسبيين» .

ويحاكم فلاسفة آخرون الامور على النحو التالي : الحقائق التي تشيخ ، التي تتطلب ان توضح وان تكمل ، ليست حقائق . اننا لا نعترف بغير الحقائق المطلقة ، الناجزة . والفلاسفة الذين يحاكمون الامور على هذا المنوال قطعيون ، دوغمائيون : فالحقيقة تتألف في نظرهم من عقائد Dogmes ، اي مبادىء ابدية ، ثابتة ، لا تقبل نقاشا او تعديلا .

يقولون : لا سبيل الى الشك في ان اثنين ضرب اثنين يساوي اربعة ، وأن مجموع زوايا المثلث كان دوما وسيبقى ابدا مساويا لقائمتين ، وان باريس موجودة في فرنسا . ان هذه لحقائق ابدية ، نهائية ، اي حقائق مطلقة .

وبالفعل ، أليس لهذه الحقائق من وجود ؟

بلى ، ان أشباه هذه الحقائق موجودة ، في علوم الطبيعة اللاعضوية ، على سبيل المثال ، في الرياضيات ، في علم الفلك ، في علم الميكانيك . فهنا يمكن بالفعل العثور على حقائق من أشباه اثنين ضرب اثنين يساوي اربعة . والحال انه في هذه العلوم المسماة بالرياضية ليست جميع المبادىء أبدية كما يتصور القطعيون . ففي علم الفلك والفيزياء والكيمياء مئات الفرضيات التي دحضها في زمن لاحق العلم الذي ما ينى ابدا في تطور .

لكن ألا توجد اذن حقائق علمية ابدية ، اي حقائق غير قابلة

للدحض في المستقبل ؟ ان المادية الجدلية تقر بوجود أشباه هذه الحقائق ، ولكن من غير ان يغيب عن نظرها ان الحقيقة ، كما يقول لينين ، سيرورة . اننا لا نستطيع تخيل الحقيقة في شكل صورة فوتوغرافية ناجزة ، كاملة ، للطبيعة بأسرها . فليست معرفة الحقيقة المطلقة فعلا خاطفا ، وانما طريق لامتناهٍ الى المعرفة . والانسانية لن تقطعه الى نهايته ابدا ، لن تصل ابدا الى خاتمته .

تتم معرفة الحقائق المطلقة من خلال تراكم المعارف النسبية . وتكمن حركة المعرفة في كون هذه الحقائق النسبية ، بتراكمها رويدا رويدا ، تقرّب الانسان من معرفة الطبيعة كاملة ، معرفة ظاهراتها وقوانينها . وكما يتألف الكل من أجزاء ، كذلك تتألف الحقيقة المطلقة من حقائق نسبية طردا مع تقدم المعرفة الذي ليس له من حدود .

ان مثل هذا التصور للحقيقة المطلقة ، باعتبارها حاصل الحقائق النسبية التي هي قيد تطور دائم ، موجه ضد الميتافيزيقيين الذين يفصلون الحقيقة المطلقة والحقيقة النسبية واحدتهما عن الاخرى . والحال انه ليس ثمة من حاجز فاصل بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة . فنحن نحصل في الحقائق النسبية على شذرات ثمينة من الحقيقة المطلقة .

لنأخذ مثالا . قبل زهاء ٢٠٠٠ سنة قامت فرضية تقول ان جميع الاجسام تتألف من جزيئات صغيرة جدا وغير قابلة للقسمة : الذرات . وقد اثبت العلم اليوم ان الاجسام مؤلفة فعلا من ذرات ، لكن الذرات ذاتها قابلة للقسمة . فرضية القدامى كانت اذن حقيقة نسبية ، لكنها كانت تحتوي على عناصر من الحقيقة المطلقة . وتتمثل هذه الحقيقة المطلقة في ان الذرات لها وجودها الفعلي، وان كانت تتألف من جزيئات أصغر وأدق ايضا. وبالاصل ، لم يستنفد العلم في هذه المسألة امكانياته جميعا . فبنية الذرة ستحظى بدراسة اعمق فأعمق على الدوام ، وبالتالي

ستحظى النظرية الذرية بمزيد من التطوير .

اننا لا نجد طريقا الى معرفة الحقيقة المطلقة دفعة واحدة ونهائية ، وانما يكون ذلك تدريجيا ، بواسطة الحقائق النسبية . ويعطينا حاصل الحقائق النسبية قيد التطور الدائم معرفة كاملة، عميقة ، مطلقة ، سواء أبالطبيعة في مجملها ام بهذا المظهر او ذاك من مظاهر الواقع الموضوعي .

تعلمنا المادية الجدلية ان **الحقيقة عينية دوما** .

الحقيقة العينية هي تلك التي تعكس على الوجه الصحيح ماهية ظاهرات محددة وشروط تطورها . اما الحقيقة المجردة فهي ، على العكس ، لا تقيم اعتبارا للوضع العيني ، لشروط وجود الظاهرات ، والتشبث بالحقيقة المجردة ضرب من القطعية الدوغمائية . مثال : تتعذر الاجابة تجريديا على المسألة المتعلقة بمعرفة ماذا ينبغي ان تكونه اساليب الكفاح في سبيل السلم والديموقراطية . ولا سبيل للاجابة الصحيحة على هذا النوع من الاسئلة الا في حال اخذ الشروط العينية لهذا الكفاح بعين الاعتبار . ولا بد من تمييز الموقف الذي تتواجد فيه البلدان التي انعتقت من النير الرأسمالي من الموقف الذي تتواجد فيه البلدان التي ما تزال تناضل في سبيل انعتاقها ، الخ .

تقتضي الماركسية الخلاقة ان تؤخذ بعين الاعتبار على الدوام الشروط العينية والاجواء التاريخية التي يدور فيها نشاطنا ، وذلك ما يسمى بتناول ظاهرات الواقع تناولا عينيا ، تاريخيا .

تلك هي مستلزمات نظرية المادية الجدلية في المعرفة .

خاتمة

في عصرنا ، عصر الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، تشعر الشعوب بانجذاب شديد الى المذهب الماركسي الذي يأسر ألباب أعداد متزايدة باستمرار من اصحاب العقول النيرة المتقدمة .

وتنتشر الفلسفة الماركسية عبر نضال ضارٍ ضد الفلسفة البورجوازية المعاصرة . وتثبت الفلسفة الماركسية ان الامبريالية ماضية لا محالة الى هلاكها ، وتؤكد انتصار نظام اجتماعي جديد على ظهر الارض . لهذا تنتصب جميع مدارس الفلسفة البورجوازية المعاصرة واتجاهاتها في جبهة موحدة للدفاع عن نظام بالٍ ولمكافحة افكار التقدم ، وتغرس الفلسفة الماركسية جذورها في اعمق أعماق الحياة والواقع والممارسة . انها بوصلة موثوقة ، مرشد في الحياة والنشاط اليوميين .

ان العديد من الشعوب لفي سبيلها الى بناء مجتمع اشتراكي بمجهودها الخلاق ، الحماسي. وليس دربها مزروعا بالانتصارات

الكبيرة وحدها ، بل ايضا بالصعاب والعقبات اليومية. ولتذليلها، لا بد من تمثل المعارف العينية المعمقة التي يقدمها العلم المعاصر . لكن ذلك لا يكفي بعد لتشييد بناء الاشتراكية المشع . فالاعمال التي ترقى الى مصاف المآثر تتطلب طاقة هائلة من الشعب بأسره. واذا لم يكن لدى الشعب اقتناع عميق بصحة المثل العليا الاشتراكية ، تعذر بناء النظام الاجتماعي الجديد . وتقدم لنا فلسفة الاشتراكية العلمية ، المادية الجدلية ، هذا الاقتناع العميق ، وتدفع بالناس الى تجنيد انفسهم بلا تحفظ من اجل قضية الشعب ، قضية الاشتراكية .

تعطينا المادية الجدلية ، وهي التصور العلمي للعالم ، يقينا راسخا لا يتزعزع بأن انتصار الاشتراكية في العالم قاطبة امر محتوم . وما هذا بإيمان سلبي ، لا يخضع للعقل ، وانما ينبع هذا اليقين من المعرفة العميقة بالقوانين العامة للتطور الاجتماعي التي اماط اللثام عنها المذهب الماركسي . ونزولا عند حكم قوانين التاريخ التي لا راد لها ، شهدت شعوب البلدان الاشتراكية حياة جديدة تعقب الرأسمالية المحتضرة . وقد بدأت البلدان ، التي خلعت عنها نير السيطرة السياسية والاقتصادية والايديولوجية للامبريالية ، تشيد هي الاخرى مستقبلا وضاء .

الفهرس

صدر عن دار الطليعة من

سلسلة الثقافة المعاصرة

الماركسية اللينينية ونظرية الحزب الثوري
(طبعة ثانية)

منير شفيق

الفرد والمجتمع
(طبعة ثانية)

ب. بيخوفسكي

علم الاجتماع الماركسي
(طبعة ثانية)

كونستانتينوف وكيل

المشاعة ، الرق ، الاقطاع : التشكيلات الاجتماعية الاقتصادية ما قبل الرأسمالية

زوبريتسكي ، كيروف ، متروبولسكي

نظرة ماركسية في تاريخ الفلسفة

ي. كليابيتش

القضايا الفلسفية المعاصرة

اميل براهييه

حرية الفن

هونور اروندل

ما الوعي الطبقي ؟
(طبعة ثانية)

ويلهلم رايش

علم الثورة في النظرية الماركسية

يوري كرازين

الادب والثورة

تروتسكي

الماركسية بعد ماركس

بيير سويري

فكر غرامشي السياسي

جان مارك بيوتي

البروليتاريا والتنظيم

كاستورياديس

هذا الكتاب

هذا الكتاب يتوجه أولاً الى اولئك الذين يدرسون المادية الجدلية لأول مرة، ولكنه يتوجه أيضاً الى اولئك الذين يريدون ان يعرفوا ، بوضوح ودقة وتبسيط ، ما كُنه القوانين الأساسية للمادية الجدلية بدءاً من المادة وتعريفها ، وعلاقتها بالحركة ، وبالزمان والمكان ، وبالوعي والفكر واللغة ، ووصولاً الى المقولات الأساسية للجدل ، كقانون نفي النفي ، ووحدة الاضداد وصراعها ، والكم والنوع ، والعلة والمعلول ، واللزوم والاحتمال ، والضرورة والحرية، والمضمون والشكل ، والصواب والخطأ ، والجوهر والظاهرة .

انه كتاب لا غنى عنه لكل من يريد الاطلاع على مبادىء النظرية المادية الجدلية في المعرفة والتعمق فيها على حد سواء .

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

الثمن : ٥٥٠ ق.ل.
او ما يعادلها